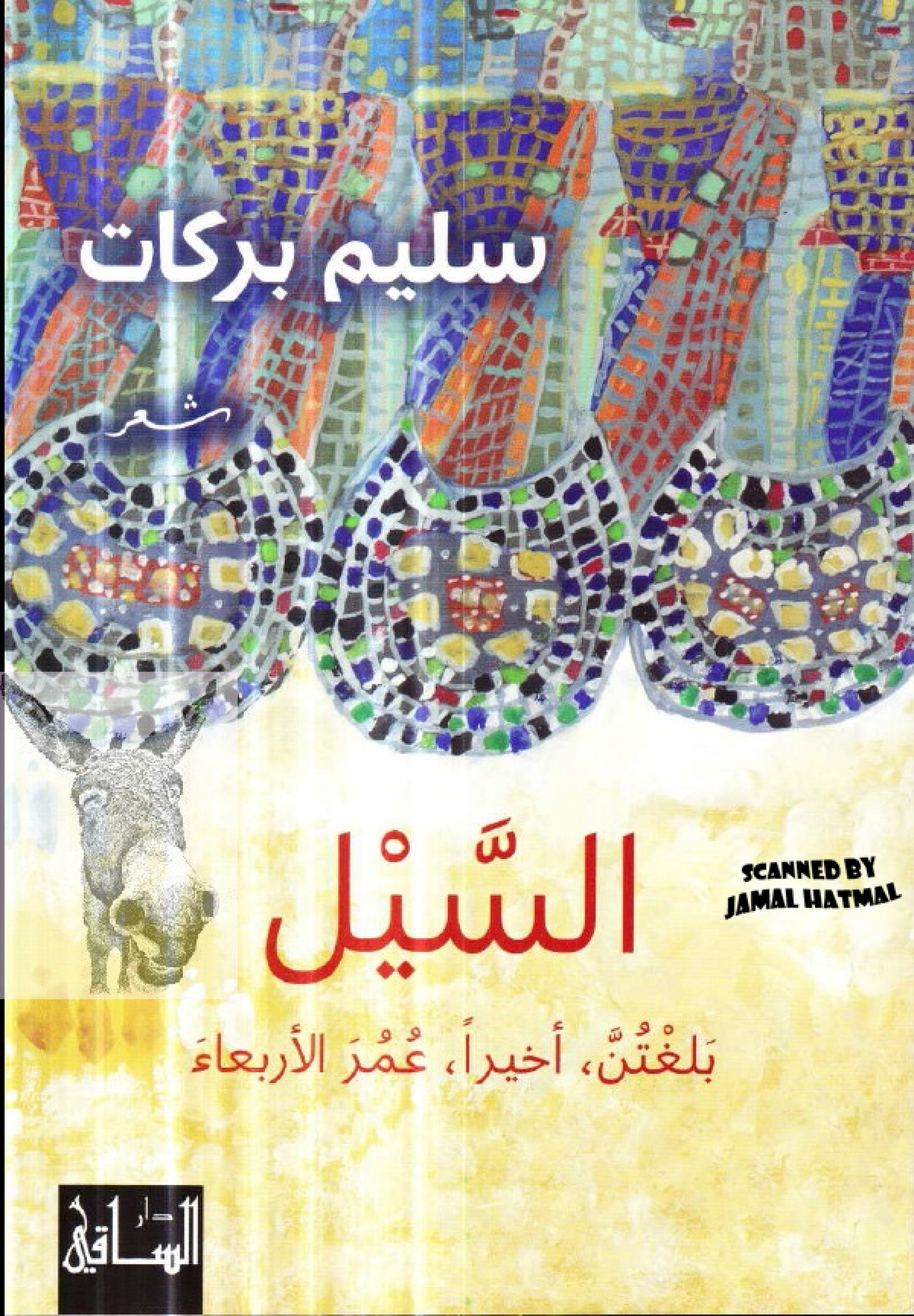

سليم بركات
شعر
السَّيْل
بَلغْتُنَّ، أخيراً، عُمُرَ الأربعاءَ
SCANNED BY
JAMAL HATMAL
دار الساقي

لوحة الغلاف بريشة سليم بركات
تصميم الغلاف: ماريا شعيب

سليم بركات



بَلغْتُنَّ، أخيراً، عُمُرَ الأربعاء





بيروت ـ لندن

الطبعة الأولى ٢٠١١

ISBN 978-1-85516-698-1

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٠٠٩٦١، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٠٠٩٦١
e-mail: info@daralsaqi.com

ها بلغتُنَّ عُمُرَ الثلاثاءِ،
فلا تَرْتديْنَ للأربعاءِ ثياباً تغيظُ الخميسَ،
بل تَحَرَّيْنَ، ككلِّ جرحٍ سَوِيٍّ،
رائِقٍ
ومُمْتَدَحٍ،
ما يتحرَّى المحقِّقون من برهانِ الموتِ.
تَحَرَّيْنَ ما تتحرَّى السماءُ من مزاعمِ الملحِ عن السُّكَّرِ
المُنْتَحرِ، لكنْ
لن
تحتفظنَ
بمرآةٍ
بعد
الآن.
احتفظتُنَّ بالمرايا، طويلاً، في ظلالكنَّ الجيوبِ. لكنَّكُنَّ
لن تحتفظن بها بعد الآن.

لا تنجو قلوبكنَّ الثانيةُ منكنَّ: ستُغْرِقْنَها في العاصف كما فعلتنَّ بقلوبكنَّ الأُولى. ستجرّرْنَها وراءكنَّ من خاتمةٍ إلى خاتمةٍ، ومن عدلٍ ممزَّق إلى آخرَ، ومن قلقٍ إلى قلقٍ، ومن دَرَجٍ مكسور إلى دَرَج مكسور. ستجرّرْنها خلفكنَّ كما يليقُ بقلوبِ مقصّاتٍ قطَّعتِ الأقمشةَ كلَّها.

لَلْمكانُ ينسى ذعرَهُ إنْ ذكَّرتُنَّه بصداعِ الفراشةِ ـ صداعكنَّ، لمَّا زعمتُنَّ أنكرَ الغصنُ المفقود فصدَّقكنَّ العنبُ؛ صدَّقتْكنَّ الغيومُ الحلوى في فمِ المغيبِ. أنتنَّ اللواتي مددتنَّ أيديكنَّ إلى مراوح اللهبِ، في الأعالي، فوق الأرخبيلاتِ الأزليةِ، مبتسماتٍ للأرُزِّ يتناثر بين نُديكنَّ المتعاركة تحت قميص النشيدِ. لأنتُنَّ ندمُ الشجرةِ، وانحناءُ الغصن من ثقلِ الشُّكْر؛ يا العدَّاءاتُ بأقدام الفجر اللَّبونِ، لن تحتفظنَ بمرآةٍ.

حولكنَّ كلبةُ المعاني بجرائها الأحدَ عشر، لكنَّكنَّ لستنَّ وحيداتٍ كفكرة العسلِ، كما تُرَيْنَ، أو كسيراتِ الأخيلةِ كأنثى الزرياب، يا أنتنَّ الملحُ على لسانِ المجرَّدِ، والفستقُ في فمه. قد تتقاسمْنَ خسائرَ المَنْدرينِ، كما عهدتكنَّ الفاكهةُ تتقاسمْنَ الأرقامَ المقتصدةَ في طباعها. قد تُخالِطْنَ أُجَراءَ السوادِ يحملون على أكتافهم نوافذَ المُحتَجِب. ولَربما ـ المتوقَّعُ أبداً ـ ستتوقَّفْنَ، في الخطوة الثامنةِ، أمام ميزان الغامض. لكنَّكنَّ لن تحتفظنَ بمرآةٍ بعد الآن.

كيف لكُنَّ أن تمتدحنَ المرايا بهباتٍ صورٍ مُذْ أتَمَمتُنَّ وصفَ الأصلحِ بالكلمةِ القيْدِ، ومكَّنْتُنَّ الموجَ أن يسابقكنَّ على عجلاتٍ، في الخواءِ المأمور بوصفِ السُّفنِ؟. السُّحُبُ المغاسِلُ، تحت المرايا الكبيرة للمغيب، ليست كافيةً كي تدخلنَ، بأيدٍ نظيفةٍ، إلى الحياةِ ذاتها، المتأخرةِ أبداً؛ إلى الوجود المتأخرِ أبداً؛ إلى الألم المتأخرِ؛ والبهاءِ المتأخرِ؛ إلى المتأخِّرِ الجليلِ ككلِّ شيءٍ آخر، أنتنَّ العارفاتُ أن ليمونتين اثنتين تكفيانِ لردعِ الليلِ بنقدهما الحامضِ، ودحْضِ البرهانِ الناقص في منطقِ النهار.

كيف لكُنَّ أن تَقِسْن نفادَ صبرِ الحدائق، قبل صعودكنَّ سلالمَ اللحم إلى عناقٍ؟. تُحمِّلْنَ الثوابَ القُبلةَ، والعقابَ القُبلة، ذعرَ السُّكَّرِ. ولا تغفرْنَ جنايةَ العادلين. لا تغفرن لحُبٍّ. ها الإلهُ، الذي أورثكنَّ الضجرَ، احشرْنَهُ كأنفاس الآلهات في زجاجتكنَّ المغلقةِ. ها قمامةُ الأفلاك، والزوايا الممعوسةُ في قبضة الهندسة، ووباءُ اليقظة، كلُّها مركومةٌ إلى جوار اليقين العائد من سرقةٍ أنجزها. أتلتفتن إلى هذا؟. أنتن، أيضاً، سرقتنَّ إفطارَ العطارين، وتغاضيتُنَّ عن نفاقِ زهرة المنثورِ، هنا، حيث يُحْيِيْ المطرُ ذكرى الوجود آنَ مزَّقَ الوجودُ قميصَه الثاني.

القواربُ تكبرُ مهجورةً. أنتنَّ تركتنَّ القواربَ تكبرُ

مهجورةً، فافعلن ما يتوجَّب عليكنَّ. خذْنَ الذي تشأنَ في ذلك من وقتٍ. خذْنَ من الوقت ما لم يأخذه أحدٌ، وتذكَّرنَ، في كل نهايةٍ، أن تكنَّ عادلاتٍ توزِّعن الظلامَ على أحفادكن بيدِ الألمِ النحَّاتِ. قلوبكنَّ واضحةٌ كغدرٍ، لا تثقُ بشيءٍ كشقيقها الغبار، ولها حِذْقٌ في نَسْلِ المحترقِ. صِفْنَ ما تُرِدْن وما لا تُرِدْن. القواربُ تكبر مهجورةً بنفْخٍ من وصفٍ مهجورٍ، والمرايا ـ عظةُ الشقاءِ الدَّاهيةُ تردُّ عليكنَّ المكانَ خجولاً، يتوارى خلف أُمه الغاضبةِ، في الذي لن تَصِفْن من أنينِ القوارب. أنتنَّ، والقواربُ، معاً، تُبقينَ إلى جواركنَّ العامَ، الذي أحرق خمسين عاماً بجمرةِ لِفافتهِ ـ لِفافة التبغ المشتعلةِ. لكنكن لن تحتفظن بمرآةٍ تردُّ عليكنَّ المكانَ خجولاً. لن تحتفظنَ بمرآةٍ بعد الآن.

هوِّلتُنَّ على الأكيد بالمجزرةِ الأنيقة كترحيبٍ؛ المُخْلِصةِ لأملها. كيف لكُنَّ أن تهوِّلْنَ على الأكيد بفضائحَ كجلد الفهد؟. لا تُحْتَملْنَ إلاَّ في زندقةٍ مِثلكُنَّ، أو في خيالٍ أصلٍ بشَّرَ بنبوّةِ اللحم شهواتِ الكمالِ كلِّها. الراقصاتُ هنا على منعطفِ الأملِ في جحيمٍ. ذوِّبْنَ ظلالَ أقدامهنَّ. أغلِقْنَ أفواهَ المغنِّياتِ باللَّوزِ الفِجِّ. بلغوِ إجّاصةٍ أغلقْنَ فمَ المُطلقِ الجائعِ. هوَّلتُنَّ. المجازرُ لا تُمتَحَنُ، والأقداحُ لا تتأوَّه متعةً. كيف لكُنَّ كلُّ هذا التدبيرِ المائيُّ؛ العودةُ من المُمزَّقِ تَرفاً

مواثيقَ؟. كيف لكُنَّ أن تهدأْنَ مرَّةً وقد أنضجتْكُنَّ الحقائقُ كستنةً على جمرِ المعقولِ ـ ابنِ الرِّدَّة الإلهية؟.

طائران نسيهما السَّهلُ يحلِّقان فوق الجبلِ. اتبعْنَهما ببصر الإوزَّةِ في طريقكُنَّ، مثلها، إلى البحيرة المفقودةِ، واتركْنَ قتلاكنَّ هنا: القيامةُ موصَدةٌ، والجسورُ لا تتسع لعبور قتيلينِ. أنتنَّ تعرفن هذا. تعرفن أن النحتَ الغائرَ، وحده، فَرْقٌ بين الموتِ والموتى. فلا تحتفظْنَ بمرآةٍ.

قلوبكنَّ واضحةٌ في استجلاء الجدران المُبشِّرة بالعقلِ. هولٌ راجحٌ. شقِّقنَ ما لا يُشقَّقُ بأناملكنَّ ـ أنامل الموعد العريقِ، فأنتنَّ الغزواتُ المرحُ تفيض منها غنائمُ الأحوالِ عن حاجة الأحوال، وأَنتن من يجمعن، في السلال، أسماكَ التواريخ الكبيرة مجفَّفةً تتدلى من شجر التوت، وتعرفن أن النحتَ النافرَ، وحده، فرقٌ بين الموتِ والموتى. لكنْ، كيف لكنَّ صعودُ الأنقاض كلِّها إلى الولائم؟. لم تهيِّئنَ الأنقاضَ لصعودكنَّ. لم تهيِّئنَ الولائمَ في الأعالي. رميتُنَّ الحصاةَ الأولى إلى البحرِ محذِّراتٍ. موَّهتنَّ على الريح قِلْعَ الطبائع الخمسِ. صَدَّقْتُنَّ المراعيَ فصدَّقتْكُنَّ المراعي. أنتنَّ. كيف عثرتُنَّ على كل شيءٍ في الخيبةِ الأُمِّ؟. مُذْ كنتُنَّ الخيبةَ كنتُنَّ كلَّ شيء؛ مُذْ

أنتنَّ،

بقلقٍ واحدٍ،
انتصرتُنَّ على الله.

هيُّوا. حدِّقنَ: لا تُرى الأبراجُ إلاَّ من ثَقْبٍ في تَرقوةِ الحمار.

أنفاسٌ مطويَّةٌ كالمناديل أنفاسكُنَّ. كيف لكُنَّ؟. لكُنَّ أن تتمدَّدن حيث تشأْنَ ـ على قُبلةٍ بمساندَ من جهاتها، أو على لونٍ وثيرٍ ذي وسائدَ من غمام البحيراتِ. لأنتُنَّ تصفعن بالأعين إذْ تغضبن. شريككُنَّ الجمالُ المستهتر بإرث الجزَّارين؛ شريكُ المساء العالةِ على الوصفِ؛ شريكُ البرقِ الذي لا يسوِّي خلافاً. أَعَضٌّ بالأقدام، وركْلٌ بالألسنةِ؟. شهدتُنَّ هذا. وأَلْمحتُنَّ إلى السفرجل الشريك في القتلِ. جمالٌ شريكٌ، مستهترٌ، له شؤم القُبلة بعد النجاةِ. شريككُنَّ العناقُ الصقيل كالألم؛ كصياح السياج المذعورِ. كيف لكُنَّ؟. أرزٌّ

مطهوٌّ في راحاتكنَّ سرقتُنَّه من قِدْرِ الجوعِ. كيف لكُنَّ؟. تمدَّدْنَ حيث تشأْنَ ـ على همسةِ سريرٍ؛ على المنسيِّ نقيّاً، محاطاً بغلالةِ المنسيِّ الآسِر. لا تُصدَّقْنَ. عَدَسٌ في راحاتكنَّ سرقتُنَّه من مؤونةِ الرغباتِ. اغْفِرْنَ أن لا تُصدَّقْنَ. الآباءُ لا يغفرون. الأمهاتُ لا يغفرنَ: وحدهُ التعبُ يغفرُ للتعبِ ـ صدِّقْنَ.

كيف لكُنَّ رعونةُ المجد كلُّها؟. صدِّقْنَ المجدَ ينتحبُ مرتعداً كي يُصدَّق. لكنْ:

لا

تحتفظْنَ

بمرآةٍ

بعد

الآن.

صدوعٌ مستريحةٌ في الحجرِ. شقوقٌ في الشفاهِ. أعطشْتُنَّ قطُّ؟. لا تعطشْنَ. الماءُ، الذي أنجزكُنَّ رسوماً على لوحه، لن يغفر لنفْسه إنْ عطشْتُنَّ. الموتُ الذي أنجزكُنَّ رسوماً على لوحِ الماء لن يغفر لنفسه إن عطشتِ الرسومُ. كُنَّ مستريحاتٍ

كصدوعٍ؛ مستريحاتٍ كشفاه مدهونة الشقوق بمرْهَمٍ. أنتنَّ. كيف لكُنَّ أن تسترِحْنَ وقد نقلْتُنَّ المرايا من يدِ الشكلِ إلى يدِ الخفاءِ؟. لن تتأخَّرنَ في العودةِ من المرايا بما تسوَّقْتُنَّ من أَبعادٍ. لن تتأخر المرايا في إغلاقِ المرئيِّ على الخفاءِ الصّور. أنجزَتْكنَّ حماقةُ العسل في البرهةِ تائهةً من دخولكنَّ المرايا، وخروجكنَّ من المرايا. كلُّ حماقةٍ أثرٌ عسلٌ على أصابع يومكنَّ. أنتنَّ. الوحشيُّ كُلُّه؛ الأليفُ كلُّه، ثقتكنَّ بالمرايا التي ثقةُ الشكلِ التائهِ. كيف لكنَّ؟. كعكةٌ يابسةٌ في صحن الشكل. قلوبٌ راقصةٌ في مراصد السواري. استدِرْنَ من سفن الكمالِ السفلى إلى التماثيل هناك ـ تماثيلِ الموانئ بعيونها المغمضةِ. يا لِعذابها التماثيلُ بعيونٍ مغمضةٍ. اسمعْنَ الهديرَ في عيونها المغمضةِ؛ الصورَ منحورةً تتخبَّط، واللونَ بأظافرَ دمٍ يخمش الحنينَ الموصَدَ.

ها هي جرادةُ الشهيق متعةً تصدم أقداحَكنَّ الفارغةَ. تسمعنَ الأقداحَ إنِ استدرتُنَّ من سفن الكمالِ السفلى إلى المجاهل تتضوَّرُ شبَعاً. لكنْ، لا تستدرْن. البعيدُ المهشَّمُ منعكسٌ على زجاج النوافذ الشرقيةِ إن استدرتُن إلى الجنوبِ السفليِّ. ولا تسترحْنَ إنْ بلغتُنَّ، بعد الرحيلِ، مداخلَ الساحاتِ الزمرُّدِ: لا مقاعدَ في الساحاتِ الزمرُّدِ حيث السَّحَرةُ يأكلون أكبادَ الخيولِ، والساحراتُ يأكلن أكبادَ السَّحرةِ. هيِّنٌ

أن تستدرْنَ من السفن، قابضاتٍ بالعيونِ الأيدي على مجاذيف المصائرِ المختنقةِ. مزاجُ البحرِ، قربكُنَّ، مزاجُ الموز، لكنْ لا تستدرْنَ من السفنِ إلى السماءِ الفِيلةِ منهارةً من ثقلِ المتشبثين بخرطومها. لا تخَفْنَ. أَمْ يخيفكنَّ نداءُ الجزائر مولودةً من تيه الإنسانِ؟. أُممٌ نكباتٌ من المرحِ تحيط بالجزائرِ مولودةً من تيهِ الآلهةِ. كيف لكُنَّ؟. الأسابيعُ الليليةُ أسابيعكنَّ. ربما بقلوبٍ ليليةٍ؛ بأقدامٍ ليليةٍ، وقسَمِ الليليِّ أحضرتُنَّ السماءَ مُكمَّمةً إلى مديحِ أجسادِكُنَّ للشهواتِ الذُّرةِ. ربَّما تماديتُنَّ، هنا أو هناك، على مرأى من أمهاتِ الخِفَّةِ النبيلةِ، في اجتذاب الزائرين يدخلون حدائقَ الفيروز حفاةً، مذهولين من الأناشيدِ الكزبرةِ نجتْ من قضْم البزَّاقِ. كيف لكنَّ نجوتُنَّ منهم؛ من أولاءِ المعذَّبين بوحشة ظلالهم متمدِّدةً كالهررةِ على كَليْم المكانِ الخُدعةِ؟. احتفظْنَ بالمكانِ أعزلَ كبدايةٍ؛ مدجَّجاً بالسلاحِ الحيرةِ. لكنْ

لا

تحتفظنَ

بمرآةٍ

بعد

الآن.

وابتعدن قليلاً عن المداخل، هناك، حيث يجرُّ الأبناءُ

آباءَهم، في الأوهاق، إلى متنزَّهاتِ النهايةِ الرملية، تتبعهم الآلهةُ ممرَّغةً في رمادِ الصّور.

لكُنَّ المشافهاتُ الصغرى في أخبار الموجودِ المعدومِ. المشافهاتُ كثيرةٌ تحت الأشجار السفليةِ. أنتن تتلقَّفْنها من بهاءِ الشوق المعتدلِ، ومن سرِّ النظرةِ المعتدلةِ. منحولةٌ هي؛ المشافهاتُ منحولةٌ. لن تأبهنَ: لقد أتممْتُنَّ الدَّرْزةَ بخيطان أيامكنَّ على قميص الخليةِ. كيف لكُنَّ؟. صعودٌ لكُنَّ إلى السرِّ، الذي لم يوهَبْ، بعْدُ، قلقَ السرِّ. تركتُنَّ في كل صعودٍ شيئاً من خُطط الأسْديةِ. تركتُنَّ على شرفة الله قفازاتكنَّ تسرقُها الملائكُ. أنتنَّ، أيضاً، اسرقْنَ الكتابَ، الذي يسرق خبزَكنَّ. اسْرقْنَ الحدائقَ السِّيَرَ من السماء الخلفية في بستان الجحيم. اسرقْنَ طفولتكُنَّ من الأفران محترقةً. اسْرقْنَ التعبَ مُفَصَّلاً قُفَّازاتٍ ستتركْنَها على شرفة الله، في العروج إلى السرِّ، الذي لم يُوهَبْ، بعْدُ، قلقَ السرِّ. اعْرِضْنَ مَسْرَدكُنَّ ـ مَسْرَدَ الثُّديِّ الكبيرة على الدم الرقمِ ذاتِهِ، حاصلاً من قياس الجهات بأرقام الدمِ. لكُنَّ عُذْركُنَّ في هذا. للغدرِ الصديقِ عذرُه في الترفيه عن الآباء إذْ يرحلون. لا تنسيْنَ. ولا تنسيْنَ: إنْ يُغتَصَبْ قلبٌ يُغتصَبْ قلبٌ آخر إلى جوارهِ.

لكنْ

لا تحتفظْن

بمرآةٍ

بعد

الآن،

تموِّهنَ بها على الألق ذي الأفواه العشرة، المُخلَّعةِ الأنيابِ والضواحكِ، فأنتُنَّ هُزِمتُنَّ في كلِّ سِلْمٍ ربحتُنَّهُ؛ هُزِمْتُنَّ في كل حربٍ ربحها اللهُ، وأوصدتُنَّ غرورَ الحقائقِ على حفاةٍ يلفُّون أقدامَهم العاريةَ بالأَعلام قبل المعاركِ، ويلفُّون أقدامَهم العاريةَ بالمجد بعدها، متخبِّطيْنَ في ظنون الحنطةِ ينزفهُم الدمُ، الذي ينزفُ الآلهةَ. كنتُنَّ الضرورةَ حامضةً، فابقيْنَ ضرورةً حامضةً كخيار الشقاء البستانيِّ يوزِّع على الحدائق أحفادَه السعداءَ. كيف لكُنَّ؟. استرِحْنَ. لكُنَّ ذرائعُ الملح وسلطانُ البَهَموتِ. وأنتنَّ الحلمُ المشمومُ في الورقة الأخيرة على غصْنِ الغارِ؛ الحلمُ الضالع في مقتلَةٍ، لا يوقظكُنَّ النعناعُ في البستان إذْ تنمْنَ متجرِّداتٍ. لا تستيقظْنَ للمكان وقد ارتخت شفتُه السفلى ذهولاً، غاضباتٍ في نومكنَّ من أسلافٍ لم ينتظروكُنَّ كي تَقُدْنَهم إلى الحرائقِ متعمَّدةً في حظوظ المعاني. اغضبْنَ أكثر. مَخْرَجٌ مُشَرِّفٌ غضبكُنَّ من مأزقِ الزيتونِ. اغضبْنَ،

لكن

لا

تحتفظن

بمرآةٍ

بعد

الآن.

غرامٌ نباحٌ في جنباتِ العوالم، وانكسارٌ أثقلُ من أن تُدِرْنَ ظهورَكنَّ لانكسار. وسِّعْنَ لنبلاءِ الأرق مجالسَ الريحِ، فأنتنَّ خِلافٌ يُسوَّى بفديةٍ من الشرودِ؛ خلافٌ ريحٌ. أَمَ أنتنَّ تهافتُ الخفيِّ على اختلاس الأرقِ من مجالس الريح؟. وتُسْأَلْنَ: ألكنَّ تتهادى هذه الوفودُ مُعْتَقَلةً في الروعةِ المُعْتَقلةِ؟. تجاهَلْنَهم. تجاهلْنَ الألَمَ تُخْرِجنَ الألمَ. تجاهلْنَ الغرامَ النباحَ في جنبات الحدائقِ المقصَّاتِ، وجنباتِ البقاءِ المقصِّ. من دونكنَّ كانتِ البراعةُ حالمةً بمن يعيدها إلى أبيها الطيشِ، وكان الخيالُ الإجحافُ بحقِّ الصُّوَر. لا لزوم لتمويهٍ على يقين التفاح كي تُذكِّرَ الحماقةُ الجديرةُ بالنحاس كلَّ تاريخٍ بكنَّ؛ بالهزائم وأخواتها. من دونكنَّ بُعِثْتُنَّ رضوضاً عِطراً لم ينجُ منها عَظْمٌ. من دونكنَّ أنتُنَّ. كدمةٌ تحت عين الفكرةِ أنتنَّ. الفكرةُ قبل الكدمة وبعدها. تهمةُ العشب للنُّورِ. أنزلكنَّ الملاكُ الحِرَفيُّ

إلى المشاغلِ، وأُدْرِجْتُنَّ بنوداً لازورداً في المواثيقِ مشكوكٌ في زرقتها؛ فنًّا من السهوِ؛ انتحالاً؛ مقايضاتٍ بين الموت والموتى بلفافاتِ التبغ. لأنتُنَّ ربحُ الهارب، وحروبُ المتسكعين في برج الدلوِ. قبْلكُنَّ الغرورُ كلُّه؛ الألسنةُ القاحلةُ، والصوتُ المُبرَّدُ في الجدالِ القائظِ، والمهرِّبون الغاضبون من منافساتِ السماءِ. اهْدأْنَ هدأتِ المرايا. لا حولَ. سيُرَتِّبكُنَّ كلُّ حَمْضٍ أدباً حَمْضاً. سيأخذكنَّ الزئيرُ إلى الحناجرِ كإيمانِ الصوتِ بالحناجرِ. ها بلغتُنَّ عمرَ الثلاثاء متردِّداتٍ في البوح بشيءٍ للماءِ التَّابع وشقيقاتِهِ الخادمات. لكنْ لا يحجبكُنَّ حجابٌ إنِ ارتديتُنَّ للأربعاءِ ما يغيظُ الخميسَ. خلائقُ كثرٌ فَعَلنَها قبلكنَّ؛ كلُّها ارتدَتْ للأربعاء الثيابَ ذاتها، والحُليَّ القمريةَ ذاتَها، التي تغيظُ الخميسَ، أيتها السكونُ الغَرِدُ بعد الضربةِ، يا الجميلاتُ كحقِّ البرتقالةِ في مَنْصِبِ الموز. التاريخُ يبادلكُنَّ بالمعاركِ الدعاباتِ، وبالرسُل السكارى، من صمودٍ لليأس إلى صمودٍ، وتتبعكنَّ الشعوبُ القَسَمُ أنها لن تغفر لشجرةِ التينِ قَسَمَها بالعنبِ. اخْتَرْنَ التاريخَ، الذي يناسبُ القَسَمَ. اختَرْنَ الشعوبَ، التي ستبادلْنَها بالمعاركِ الدعاباتِ، في الأيامِ الغيظِ، الشهيةِ، المكتظَّةِ بأريافٍ تحت معاطفِ ساعاتها.

لكن

لا

الماءِ، والأزرار المائية، والرعودِ التي تُشترى في مزادٍ؛ وجودٌ بقَدَمٍ في الحذاءِ وأخرى في الذهولِ. نجوتُنَّ، أبداً، من الصباحِ. لكِنْ حاذِرْنَ المجرَّدَ؛ لا توكلْنَه بدفع دَيْنِكِنَّ إلى أُمِّه الصّور ناطقةً بلسان اللانهائيِّ الجِلْفِ. لم تَخرُجْن من بيتٍ. لم تدخلن بيتاً. غادِرْنَ ما لستُنَّ فيه. غادِرْنَ

الحروفَ

التي

تلدُ

الكلماتِ

قبلَ

أوانها. اسمَعْنَ:

لا حولَ إلاَّ الغضبُ؛

لا قوَّةَ إلاَّ القوس.

جرحٌ سَويٌّ، رائقٌ، مُمْتَدَحٌ ككلِّ جرحٍ: ذلك ما أكَّده الموتى المحقِّقونَ، ملتزميْنَ بنزهاتهم الطويلة في النهار المُقَلَّد عبورَ الموتى لِصَاقاً. تأخَّرتُنَّ عن هذا. تأخَّرَ عنكنَّ هذا. تأخَّر

المتأخرُ أبداً عنكنَّ، أنتنَّ الحاضراتُ قبل الموعد بشفاهكن
القريبة من فم الليلِ، تؤكِّدنَ للموتى، المحقِّقين في برهانِ
الموت، أنَّ كلَّ جرحٍ سَوِيٍّ رائقٌ، وممتدحٌ،
وأنَّ السماء تتحرَّى، مثلهم، مزاعمَ الملحِ عن السُّكَّرِ
المُنتحِر.

تؤكِّدْن مُعْتقدَ النحلِ، وصبرَ الزبدِ، حيث لا يسألكنَّ أحدٌ
عن مُعْتَقَدٍ له خَطوةُ الظاهرِ، وقفزةُ الفلفلِ، يا أنتنَّ الصرامةُ
المرهوبةُ للفوضى، والظلالُ التي لم تُرْضَعْ كفايةً؛ يا ابتزازَ
الكلماتِ للمعاني، وابتزازَ المعاني للكلمات. لم تُبْعَثْنَ من
الخليةِ المشيئةِ ومْضاً، بل من صرير البوابةِ تصطفقُ على النشأةِ
ومضاً. كانت البوابةُ هناك ـ بوابةُ الأصلِ المهجورِ. كان
المهجورُ الحيُّ، وسيطُ البقاءِ الأقربِ كعضٍّ. مؤقتةً كانت
السماءُ، وإلى شبرٍ، جنوبَ المَبيتِ في الدم كنتُنَّ ولم تُبْعَثْنَ،
بعدُ، من الغيمِ يروِّج لأبواقِ الجفاف الكبير. لقد أُعْطِيْتُنَّ
زعنَفةً واحدةً لتعلِّمنَ الموتَ إرادةَ الغريبِ في البقاءِ غريباً ـ
إرادةَ البحرِ. أُعْطِيتُنَّ انبعاثكنَّ من مُعتَقَدِ الحشيشةِ المُرَّة؛ من
مضْغِ قصب السُّكرِ في زحامِ الخفيِّ وصَخَبهِ؛ من شتائم
السراج للنُّورِ؛ من السماءِ ملتزمةً بفتورها؛ من الصُّوَرِ تعترض
حلمَ الصُّورِ بالمؤقَّتِ كحُبٍّ؛ مِنَ الجَهيْضِ قَبل أن تذوب
الزبدة في قلبِ المشيئةِ المقلاةِ. أُنجِزْتنَّ قبل الزبدةِ بلا بعثٍ

من الشَكلِ، جنباً إلى جنب مع الملحِ بذيئاً يرفِّهُ عن اللهِ حينَ لم يملَّحْ فراغُ اللهِ اللحمُ الكونُ كفايةً. فلا تأملْنَ بعثاً آخر أمام السياجِ الأعظمِ، الذي ينسى الأرضَ في تذكيرِ الوجودِ بإرثهِ الحصارِ. تصرَّفْنَ كأنْ لم تُبْعَثنَ من الخليةِ المشيئةِ. أوجِزْنَ في الأخبارِ، التي تسترِقُّ المعجمَ. اقترِبْنَ،

لكنْ

لا

تلمَسْنَ

مرآةً

بعد

الآن.

حاوِلْنَ أن تتعوَّدن هذا.

أحْبِبْنَ كثيراً:

ذلك أمرٌ سيغيظكنَّ،

وستتعوَّدن عليه.

ستتعوَّدْن أن تَرَيْنَ أطفالكنَّ،
الذين لم تنجبنهم، بعدُ،
ذاهبين إلى مدارسهم بلا حقائب.
ستتعوّدن كتابةَ الرسائل إلى العناوين الخطأِ ـ عناوينكنَّ.
ستتعوَّدن أن تفتحن النوافذَ على وجوهكنَّ في الجهة الأخرى.
ستتعوَّدن أن تكذبْنَ حين ينجزُ الآخرون، جميعاً، أكاذيبَهم.
ستتعوَّدن أن تُكْسَرْنَ بأيدٍ ليس في مُكْنتها أن تكسِرَ، لأنكنَّ تتحدَّثْن ككلِّ امرأةٍ،
وتتحرَّكن ككلِّ امرأةٍ،
وَتنَمْنَ ككلِّ امرأةٍ،
وتعضَضْنَ بالأسنان على حافاتِ كؤوسكنَّ ككلِّ امرأةٍ،
وتتقنَّعْنَ بالأزرقِ الخنفساءِ، والبياضِ الثعلبِ، ككلِّ امرأةٍ:
لا قلبَ يفهم ذلك، فلا
تخبِّئْن
مرآةً
في
نظراتكنَّ
المؤقتةِ

بعد

الآن.

خبِّئْنَ المؤقتَ تحاصِرْنَ به الأزليَّ في المرايا، التي

لن

تحتفظن

بها

بعد

الآن.

كبيرةٌ أزرارُ معاطفكنَّ في عُرَاها الضيقةِ. لا توسِّعنها العُرى. عُرى العَدْلِ لا تتَّسع لأزرارهِ. ضَيِّقْنَ على كل شيء كي لا تُحْسَبْنَ أعياداً: ستتفهم القلوبُ ذلك، وهي تستسقي من جَفْنةِ الأعمارِ المشروخةِ، يا حظوظَ الحياةِ طليقةً في الفراغِ النكرةِ ـ ابنِ الشَّقاءِ المَطْهَر. أكِّدْن، إذاً، ما يؤكِّده أيُّ جرحٍ سويٍّ، رائقٍ ومُمْتَدَحٍ. وتجوَّلْنَ وحيداتٍ في البدءِ الطينِ يلتصقُ بالأعقابِ. أزرارُ معاطفكنَّ كبيرةٌ. جيوبُ معاطفكنَّ كبيرةٌ، ملأى خطوطاً حمراء، مثقوبةٌ قليلاً كالصباح، الذي تَرَيْنَه متدلياً من الشمس مُحْبطةً من بقاءِ الموتى على عهدهم؛ مُحْبطةً من بقائها شمساً كلَّما أفاقت. تجوَّلْن، جنباً إلى جنبٍ، مع الملحِ بذيئاً يرفِّه عن الأجسادِ يستأجرُها الموتُ مؤثَّثةً. امْسَحنَ أجفانَكن بالماءِ، في الصباح ذا، الذي لن تَرَيْنَه.

امْسَحنَ أجفانَكنَّ السطورَ، المنتفخة قليلاً في صفحات السِّيَر، قبل قراءة كتابكنَّ الزرايةِ من أوَّلهِ إلى آخرِكُنَّ. أنتنَّ زائراتُ التماثيل محتجباتٍ. عشبٌ عالقٌ بشعوركنَّ إذْ تَخرُجْن من المخادعِ إلى التماثيلِ. رملٌ على أصابع أقدامكنَّ. قطراتٌ من أَرَقِ الخالد تتدحرج تحت الثُّديِّ. ارفعْنَ مظلاتكنَّ: التماثيلُ متزاحمةٌ تحت المظلات الكبيرة، في المَطرِ الرملِ، قرب الإلهِ، الذي لا يثيرُ غَيرةَ الوجود. تماثيلُ شُرَّاحُ العُشْرِ الناقصِ من ظلالِ العشبِ البريِّ، عائدةٌ من زياراتِها الآدميَّ المحتجبَ. انظرْنَ إلى أيديها متشقِّقةً من حَمْلِ الخبزِ إلى اللهِ. انظرْنَ إلى النسيان يبدِّلُ الطهاةَ والمعاجنَ في مآدب التماثيل. تمالكْنَ أنفُسَكنَّ إذْ تسمعنَ الجِراءَ الحجرَ ترضع من ثُديِّ ظلالِ الكينا. احْجبنَ أعينَكنَّ بالأيدي الرخامِ:

بياضٌ

هريْسٌ

في

الرسومِ

كلِّها

بياضُ الحجريِّ، الذي

تظلِّلْنَه من السماءِ بالسنبلةِ القناعِ. البياضُ ـ زلازلُ عطرِ المراميانِ، وأعاصيرُ الصعتر. ظلِّلْنَهُ. ظلِّلْنَ الطرقَ المُتعبةَ من

مهامٍّ الهواء، أنتنَّ الحاذقات أن لا تتذكَّرْنَ متى مُتُّنَّ آخرَ مرةٍ،
وأين أخفيتُنَّ قواريرَ الخلِّ، التي أفرغتُنَّها من سفرجلكنَّ
المخدوعِ. بياضٌ
ككلسٍ
ملطَّخٍ
بشتائمِ
الظلالِ؛
استَعِدْنَ الظلالَ من كلِّ شكلٍ. حصِّنَّ المجهولَ الناجي من
مسالخ العقلِ. لأنتُنَّ تتحدَّثن كما النساءِ،
وتتحرَّكن كما النساء،
وتنمْنَ كما النساء،
وتُخْطَفْنَ كما تُخْطَفُ النساءُ قبل الخريفِ بحريقٍ واحدٍ،
وتتذكَّرْن متى رهنتُنَّ الليل، بتمامه، حفنةً حفنةً، عند النُّورِ
المتسوِّل، كأنما استعرتُنَّ خرائطَ اللوعة بعواصمها المرقونةِ
دوائرَ حديداً، وبشَّرتُنَّ بالنهايةِ، التي توشك أن تبدأ سيرتَها
الطويلةَ من الهواءِ الخرابِ إلى الكرزِ المنسيِّ
في
كِيْسِ
الرَّاحلِ.
اسْتَعِدْن الظلالَ من كلِّ شكلٍ؛ استعِدْن حرائقَ أُخرى

كخضارٍ لم تُقَشَّر جيداً: لقد رصدْتُنَّ حريماً ثلوجاً في كَنف البقاءِ الذَّكَر. لا تروَيْنَ هذا. رصدتُنَّ الأرضَ ممرَّغةً في الأنفاسِ، والحياةَ ممرَّغةً في شحم الحوت. لكنِ احْذرْنَ الوسائدَ غيرَ المريحةِ، هذه، التي تتكئُ عليها الكلماتُ، والوسائدَ الخشنةَ وراء ظهور الحقائق، يا أخواتِ جروحٍ توزِّع الحلوى في أعيادِ الرُّسل. لأنتنَّ تتشمَّمْنَ الهواءَ بالألسنةِ ككلِّ امرأةٍ،

وتلتزمْنَ أدبَ الجليد جريحاً ككلِّ امرأةٍ،

وتتعثَّرْنَ بأقدام الخفيِّ الخَمسِ ككلِّ امرأةٍ،

وتتبادلن تحياتٍ مهذَّبةً كالتي يتبادلها أشباحُ الأعداءِ، قبل صعودكنَّ إلى نعاسِ الأنثى، الذي يكسر الجوزَ بأسنانه. انظُرْنَ: تبكي الحماقةُ غضباً من عطفكن على الأنينِ النَّحْتِ في الصوتِ. معاطفكنَّ كبيرةٌ. الحماقة تبكي غضباً من المعاطفِ الكبيرة، يا أخواتِ الكُلومِ المريحة، يا اللواتي لا تأبهْنَ للحماقةِ إنْ لم تكُنْ غاضبةً غضبَ الشهداءِ يسرقون حقائبَ الوافديْنَ إلى النهايةِ. أمرزْتُنَّ بالسحب تُنْحَرُ بمديةِ الملاَّحِ؟ أمرَّتْ بكنَّ الحرابُ مقذوفةً بلا تسديدٍ، والرياحُ مقذوفةً، عشواءَ، إلى الآبار الدفينةِ في الغيمِ؟. لَمْعٌ على شفاهكنَّ؛ أَحُزنٌ؟. لا يُقاومَ حزنٌ؛ لا يُقاوم الحزينُ. ربما معاركُ نجدةٌ على شفاهكنَّ؛ معاركُ تحدِّثُ الشفاهُ بها الشفاهَ لَمْساً. سعيداتٌ

كالشُّبهة أنتنَّ؛ الحدقاتُ الثواني في عيون الساعات، والصوتُ النبيذُ، الذي لا يُهان. دجاجاتكنَّ قلِقةٌ في الخُمِّ النجميِّ. حوصِرنَ بالدِّيكةِ الصمتِ ملتزماً أدبَ البدءِ. حُوصِرتُنَّ بأمشاط المجاهل ومراياها، وبأصواتِ الملحِ الأربعةِ ذواتِ العزيفِ على جهاتِ السفن. لم تزلْنَ والسفنَ عقيدةٌ للمياهِ مؤكَّدةً باعترافِ الزبدِ المُعْتَقَلِ. لَمْعٌ على شفاهكنَّ. لا تمسحْنَها ممَّا تُرِكَ على الشفاه من دَسَمِ المُعْضل. لا تحدِّقنَ من السفن إلى أقيالِ النواميس قادميْنَ إلى حصادِ المياهِ. أمْ رجعْتُنَّ، قبل برهةٍ، من نزهتكنَّ في المغاليق؟. ودَّعتُنَّ أحفادكنَّ بقلوبٍ عليها أثرٌ من أقدام الذئبةِ مُذْ رجعتُنَّ زحفاً على الظلال الخشنةِ، لِصقَ الجدرانِ ـ عظةِ اليقين المُحكَمةِ. السماءُ فوقكنَّ متقطِّعةٌ كبُعدِ أزرارِ معاطفكنَّ الكبيرةِ بعضِها عن بعضٍ. نُظمُ العصيان ما جلبتُنَّ في العودةِ. جلبتُنَّ الأرضَ تعرض على عمَّال الغيبِ أُجوراً مُجْحَفَةً. هي هكذا. الأرضُ أكثر اتِّساعاً في العيونِ الحُوْصِ. صحراؤها أجْرٌ مدفوعٌ بأقساطِ الريح في مقايضاتكنَّ الطويلةِ. معجزاتِ جلبتُنَّ في العودةِ؛ بغالاً معجزاتٍ. لفافاتُ التبغِ القصيرةُ بين أصابعكنَّ لن تموتَ. لا موتَ يستأذنُ في دخوله عليكنَّ بل يستأذنُ الخروجَ مرتين: كلٌّ يموتُ مرتين: في الدخول إلى الموتِ؛ في الخروجِ من الموتِ. وأنتنَّ لا تمتْنَ، بل تذْبُنَ في الحياةِ قشدةً. لن ترجعنَ. أَمْ رجعتُنَّ،

قبل برهةٍ، من نزهتكنَّ في حلمٍ يتساقط من غربال المكان؟.
ستُقْتَلْنَ إذا اجتمعتُنَّ في قُبْلةٍ واحدةٍ،
أو عناقٍ واحدٍ،
أو رعشةٍ واحدةٍ،
أو وَفاءٍ واحد.
تَفرَّقنَ في الأعياد المقلّدةِ شهيقَ الموسس تحت المخذوليْنَ. كُنَّ الشروقَ العنبَ في يدٍ، والمغيبَ الكرزةَ في الفمِ. وانفضْنَ، بالأناملِ، النصفَ المطحونَ من قمرِ الغد عن أكتافِ معاطفكنَّ الكبيرةِ. هي هكذا: الحكايةُ، كلُّها، استدارةٌ إلى الوراءِ في المكانِ الخطأِ. عقلٌ. ربَّما. لكنْ
لا
عقْلَ
يشبهُ
الأرزَّ
بسَمْنٍ،
فلا تحتفظنَ بذهبٍ يعضُّ على لسانه غيرةً من العقلِ
لا
يشبهُ
الأرزَّ
بسَمْنٍ.

سَمْناً فلتفرِّقْكنَّ الشفاهُ على الشفاه في القُبَل. هي هكذا. الشفاهُ كتمرُّدِ النَّحْلِ وعصيان النَّحاليْنَ. منذُ تذوَّقْتُنَّ الثمرةَ في غفران الرماد أصْلَحتُنَّ شكلَ القُبَلِ؛ وزَّعتُنَّها زوايا ودوائرَ هدايةً من الحاصل الخيارِ للجسدِ الكليِّ. أحطتُنَّها بالمُطْلقِ أجيراً عند السيدةِ الكمأةِ؛ بالطُّرق متفرِّعةً من حول المَتْجَرِ السماويِّ؛ بالسماءِ الأحذيةِ مُنْتَزعةً من أقدام الأسيادِ. هي هكذا القُبَلُ ـ المَغْنَاةُ بسطورٍ من عَرَقِ الخيالِ، وصهيلِ الجياد خارجةً بأَنصافها من النَّغَمِ المشطورِ؛ هكذا كما لا عزفَ على آلةٍ حين تهدأ العاصفةُ؛ القُبلُ أخواتُ الدَّم، الذي يعثر، أبداً، على المعاركِ. سمْناً فلْتفرِّقنَ الشفاهَ على الشفاهِ في القُبل، يا حظوظَ الحياةِ؛ يا صوتَ صوتٍ. أتصغيْنَ؟: عشرةُ نمورٍ تزأرُ في البرهةِ ذاتها ـ برهةِ القُبلِ مذْ أصلحتُنَّ شكلَ اللَّمسِ مكعَّباتٍ، وبنيتُنَّ اللمسَ سُفناً في الغُرفِ. هي هكذا نشأةُ القبلِ ـ أمَّهاتِ النهارِ متقلِّباً في سريره ذي القوائم الثلاث. لا تدخلْنَ القُبَلَ. لا تَخْرجْنَ منها. خطوطُ أكفِّكنَّ ـ نقوشُ النكبةِ الأصلِ، تُقاسُ بالقُبل. لكُنَّ أعراضُ القُبل ظاهرةً على الأفواه أثراً من لكْمةٍ بجُمْعِ المديحِ. لكنْ، لا تأبهْنَ إنْ تفرَّقتُنَّ سَمْناً على الشفاه في القُبلِ. ستتجمَّعنَ، ثانيةً، في ريحٍ لا تؤتَمنُ على خلافٍ، مرتشفاتٍ كؤوسَ نبيذكنَّ في عربات الشمال وأنتنَّ تنفخنَ، من ثلجٍ إلى ثلجٍ، على القشور الكثيرة تتساقط من

فستقِ الآلهةِ في الكلمات. لا تأبهْنَ: الجروحُ تُسوِّي الأمورَ على طريقتها المدهشةِ. عينٌ عليكنَّ ـ عينُ الليلِ، الذي بلا جيوب؛ عينٌ على المُمكنات الكسادِ ـ عينُ الشقاءِ المهذَّبِ داخلاً إلى مسلخهِ. مُنتزَهاتٌ كثيرةٌ منتزَهاتُ اللوعةِ. تَحَقَّقْنَ من القُبلِ صالحةً للدخولِ بكنَّ إلى اللوعةِ. تَخذُلُ القُبلُ. تَخْذَلُ الشفاهُ. الأرواحُ تسلخ جلودَها الأفعوانية في منتزهاتكنَّ الكثيرةِ. الرجالُ الرملُ يعبرون ممرَّاتِها الظليلةَ بحدقاتهم الواسعةِ. يعبرها جامعو الصباحاتِ. لا جُسورَ هناك، فوق الأخدودِ الغَورِ. وأنتنَّ تنظُرنَ أسفلَ، إلى ما يتهاوى قُبلةً قبلةً على شفةِ المكانِ سائراً، في ارتخاءٍ، على حَبْلِ الوقتِ الثابتِ. هيُّوا. تجمَّعْنَ في ريحٍ لا تؤتَمَنُ على خلافٍ بآذانٍ تسمع شهيقَ الطرق على المنحدراتِ الجبلية. هي هكذا. الطُّرقُ كلُّها هكذا: مشقَّاتٌ في ترجمة السوسنِ إلى لغةِ المنثور.

أغاني النوافذ ما تسمعنَ.

أغاني الأبوابِ،

وأغانيِ الحُشوشِ، التي يحيط المُطلَقُ بشجيراتِ اللِّيفِ فيها، ما تسمعْنَ،

وتسمعْنَ الجبالَ ـ الصّورَ نَفَساً حجراً من رئاتِ الآلهةِ.

هي هكذا. الأغاني الفَتْكةُ بالرؤى الكراسيِّ الكثيرةِ تغطي الصحراء. لا طائلَ فيها الأغاني. ولاءٌ موصَدٌ. تتلمَّسن الولاءَ الموصَدَ باباً بلا مقبضٍ، إن فتَحتُنَّه فتحتنَّ الأَرَقَ القبضةَ ملأى بدنانيرِ الملاحم، وبالطواويس الحجرِ مدفونةً في رمادِ الأزليِّ؛ بالظنونِ تفتح كلَّ شيءٍ على نَكَدِ العذب، وتغلق كلَّ شيءٍ على فتورِ الطبائعِ. أسفٌ ما يردِّدُ ترحيبَهُ بأسافلِ الهزائمِ وأعاليها. أسفٌ كعكةٌ في الأفواهِ قَبْل النهب. لن تَحْتمِلْنَهُ الأسفَ، الذي كضحكةِ الوغدِ. لا يعنيكنَّ أن تحتملْنَه بعد الأغاني ـ الولاءِ الموصَدِ. هي هكذا الأغاني موصَدةٌ على أسَفِ الإنسان. لكِنْ أكْمِلْنَ رشفَ حسائكنَّ ـ حساءِ اليقطين ساخناً قبل الهجرةِ الكبيرةِ. أكمِلْنَ حشْدَ الشهب تحت وسائدكنَّ، بعيداً خطوتين عن الأملِ الوسادةِ محترقةً من تعثُّر الخَدَمِ المرئيين بالجمرة الأخيرة في موقد اللامرئيين. هي هكذا: الطّرقُ كلُّها: مشقَّاتٌ في ترجمة الزعفران إلى لغةِ الجوز.

فصولٌ أشلاءٌ تُرمى من نوافذ النسيانِ العالية، يا حظوظَ الحياةِ ـ أنتُنَّ. تلقَّفْنَها الأشلاءَ تتساقطُ على قُرْبٍ من العارِ؛ على قرْبٍ من عارِ النصرِ. بلا أسفٍ كأسفِ الحليبِ. بلا أسفٍ. تلقَّفْنَ الشقاءَ اللَّبقَ يتلمَّس الوجودَ بأصابعِ النشيد المبتورةِ: إنها المكافأةُ الحصارُ على الرَّحْبِ من الشتاء متفحِّصاً في سِجلِّ الحظوظِ؛ على الرَّحْب من الشهوةِ الباردةِ الشفتينِ. خِزيٌ بَعْلٌ يرفِّه بفكاهاتهِ عن الزَّبدِ الموحِّدِ. تلقَّفْنَ ما تشأْن من الأفضلِ مقيماً خارجَ ذاتهِ، قريباً من الخطوةِ التالية بعد الرماد الحالم؛ الأفضلِ العَلَفِ في مذودِ الزَّمَّاريْن يقودون بغالهم إلى الحريق ثانيةً ـ حريقِ النقاء، الذي للحنين المسروقِ. احْملْنَ على أكتافكنَّ أكياسَ المَرَدَةِ، والوديانَ الغيومَ، والمنحدراتِ التي لا تُعْذَرُ في إخلالها بسطوةِ البقاءِ الرخوةِ على جراءِ اليأسِ. هي هكذا أقداركُنَّ المشقَّةُ في ترجمة الماء إلى لغةِ النهرِ.

لكِنْ

لا

تحتفظنَ

بنهرٍ

في

مرآةٍ.

لا

تحتفظنَ

بماءٍ

أُوْرِثَ

خَبَلَ

الزيتِ،

لأنكنَّ مأوى الجهاتِ المشرَّدةِ؛ الوارثاتُ حلْفَ الخلجانِ مهجورةً. كلُّ أرضٍ إلى جواركنَّ أرضٌ زفيرٌ. أتستدرْنَ إلى الجنوب؟. الغريباتُ لا يستدِرْنَ إلى الجنوبِ. الموتى، وحدهم، ينزحون جنوباً مُذْ صَففْتُنَّ المعاجنَ، بأناةٍ، في جهةِ الموتِ. سبحانَ الصرخةِ تصرخنَها، الآن، بأناةٍ، من حناجركنَّ الرياحِ مبتدئةً في إدارة النُّظمِ. الألمُ المقدَّسُ. اللهاثُ المقدَّسُ. النشيج المقدس: زفيرُ الأبجدية الثالوثُ كقبضِ الرقمِ على الصّورِ. كيف لكُنَّ القبض هكذا، بأناةٍ، على الحلقاتِ الحجرِ تسوِّرْنَ بها جزائرَ السماءِ؟. رؤى القِرِلَّى أنتنَّ. دعاءُ الطواحينِ. صَفْعُ كلماتٍ من راحة اللسانِ. لكْمُ كلماتٍ من قبضةِ اللسان. عراكٌ هذا. زجرُ المضائقِ للبحرِ. لا تفوِّتْنَ زجْراً. لا تفوِّتْنَ عراكاً. أمهاتُ الخمسةِ الجبالِ أمهاتُكنَّ بخُمرٍ من شَعر ثيرانِ اليَاكْ. بدوُ جليدٍ يصحبونكنَّ إلى

مطالعِ أشعارِ النُّسَّاك رسوماً على حَجَرِ الأوديةِ. لكُنَّ ابتهالُكنَّ في الأوديةِ ـ ابتهالُ الشَّكِ إلى الأسلافِ سُرَّاقِ النَّحْلِ. وتعوِّضْنَ شَرَفَ الدقائقِ المهدورَ تعويضَ الفراشةِ الحقلَ إنْ أُهينَ. معاطفكنَّ كبيرةٌ ـ معاطفكُنَّ الغاباتُ، وأملُكنَّ جديرٌ بإصلاح الحروبِ المكسورة، أنتُنَّ، يا الوفاءَ الجوَّابَ على جُرُفٍ زيتٍ. ستنزلقُ حبَّةُ الزيتون من بين أصابعكنَّ ساقطةً في الأساطيرِ. لكِنْ

صعبٌ

أن

لا تُقتلْنَ

في

انزلاقكنَّ

من

الأساطيرِ

إلى

الحُبِّ.

صعبٌ أنْ لا تُقْتلْنَ بعد الحُبِّ: تدبَّرتُنَّ للحزن أمْنَهُ، وللألم عافيةَ الصخب، وأضأتُنَّ المُدنَ في أنفاقِ الأرواحِ. منعشةٌ شهواتُ الأرضِ الأنيقةُ بذهولها. أنعشتُنَّها الأرضَ بشهواتِ الجلالِ الموحشِ؛ بالزيتِ على نصالٍ؛ بالرياحِ جاهلةً وجهةَ

هبوبها. ذهولُكنَّ أنيقٌ ـ ذهولُكنَّ الفؤوس لم تزل معلَّقةً إلى عُقْفِ اللونِ في الرسومِ كلِّها. هي هكذا الرسومُ كلُّها:

حَلْبُ أبقارٍ في معركةٍ؛

حلْبُ أبقارٍ تحت الماءِ في آنيةِ المفقوديْنَ؛

طقطقاتُ أَعقابٍ ماءٍ على رصيفِ ماءٍ. يا بكاءَ الستائر أنتُنَّ؛ لا تحتفظنَ

بعاشقةٍ

في

مراياكنَّ.

لا

تحتفظنَ

بمرآةٍ

إلاَّ

في مكْرِ المختاريْن.

وتوسَّطْنَ، إنْ شئتُنَّ، للمصادفات كي تُغْتَفَر لها طعنةُ الجَمالِ. لا تتوسَّطن لها. لا تتوسَّطْنَ للأغاني ممرَّغةً في السميد. ضَرَرٌ مُحْسِنٌ هذا. تعوَّدتُنَّ أن لا تتوسطْنَ لحالٍ عند حالٍ أخرى. احْذَرْنَ إنْ توسطتُنَّ: الجديدُ منافقٌ كابنهِ القديمِ المنافقِ. يشهدُ لكُنَّ الحَذَرُ أنكنَّ قَسَمُ الحَذَر بالبراكينِ الحَلَماتِ قريبةً من شفاه الجليد، وبالرمادِ المِسْطَرةِ لها أرقامٌ

من أنفاسِ الكونِ. يغفر الحذرُ لكُنَّ أنكنَّ عنبُه يشرفُ من السفوحِ على المعاركِ؛ أنكُنَّ عنبُه، الذي لايؤكلُ. الصيادون عائدون من غدهم إلى غدِ الطرائد. يلمحكنَّ الصيادون بأعينِ زفراتهم ـ زفراتِ الجليدِ الشاعرِ. جمعتُنَّ، قَبْلاً، زفراتِ الجليد الشاعر تحت وسائدكنَّ بشُكرٍ كثير منكنَّ لمقالعِ الحجرِ على هِباتها من الألمِ الأعظمِ ـ ألمِ التماثيلِ. يلمحُكُنَّ الصيادون. تَلمحْنَ، أنتُنَّ، الطرائدَ ـ قطيعَ المعاني مذعوراً في اغتصابِ الكلماتِ للكلماتِ، وتشكرْنَ الصيادينَ أنهم يلمحونكنَّ في عودتهم من غدهم إلى غدِ الطرائدِ. أَخُدِعتُنَّ؟: في مسرحٍ، لا في مكانٍ آخرَ، يُخدَعُ الرمادُ.

تنفَّسْنَ عميقاً كما تتنفَّس النساءُ.

فَرِّمْنَ المساءَ شرائحَ رقيقة، متبَّلةً بالفُطر الغاريقونيِّ، كما تفعلُ النساءُ.

أعْدِدْنَ بَيْضاً مقليًّا للإفطار على دندنةِ العاشقاتِ، كما تفعلُ النساء.

روِّضْنَ شَعرَكنَّ العِدائيَّ، الشرسَ، قبل النوم، كما تفعلُ النساء،

وكما تفعل النساءُ اغْفرْنَ لموتٍ لن يغفر لنفْسِه كَمْ تساهلَ في اختيارهِ. اغْفرْنَ له أنه لم يكن، أبداً، على ما يرام.

وليكُنْ ما أردتُنَّ من صَوْغ الشَّغَبِ حكمةً: صعبٌ أن تُعادَ قلوبٌ إلى أماكنها بعد أن تُخان.

مطرٌ زخارفُ بتصاميمَ من شكِّ الماءِ يبلِّلكنَّ.

عيونٌ تتساقطُ في العبور إلى وحيٍ يُرى، حيث تسترِحْنَ استراحةَ الجمادِ القصيرةَ. قلوبٌ تتساقط. حقائقُ تقضم أظافرَها بالأسنان. تكلَّمْنَ بأصواتٍ خافتةٍ. أنتنَّ على حافةِ الفراغِ الذَّكَرِ بأبصارٍ إلى هناك: جيلٌ آخرُ من اللقالق يبني أعشاشَه على مداخن الجحيم.

أُسْعِدْتنَّ، إذاً، قلقاً.

أُسْعِدتنَّ قَلَقاً من فطرةِ الرَّجلِ فيكنَّ.

أُسْعِدتنَّ عَجلةً.

أُسعِدتنَّ مخابئَ في أَرَقِ الصّور.

مثلُكنَّ لا يتهيَّبنَ دحْضَ الماءِ. لا يتهيَّبْنَ دحْضَ المائيِّ: كلُّ جفافٍ نثرٌ مائيٌّ. كلُّ جفافٍ شِعرٌ مَرِحٌ يعابث به الماءُ إخوتَه المؤجَّليْنَ. أتتهيَّبن أن تكُنَّ أمهاتٍ أنجبْنَ الطفولةَ

عمياءَ؟ ألاَ لن يردَّكنَّ عن دحضِ المائيِّ جدالُ الجفافِ الشاعر.
تنفَّسْنَ، إذاً، كالنساء.

توافَدْنَ ليلاً إلى النبعِ مَعْ ضباعِ الضروراتِ كالنساء.

احْملْنَ أمتعتكنَّ على عجلتين من عجلاتِ الوقتِ الثماني كالنساء.

انْصبْنَ التماثيلَ مكسورةَ الأكتاف على مداخلِ أَمَلِكنَّ الكهفِ كالنساءِ،

لأنكنَّ تربحْنَ كالنساء، لمرَّةٍ، شكَّ أجسادكُنَّ. جيدٌ أن تربحنَ شكَّ أجسادكنَّ، يا اللواتي لا تفتحنَ الأقفالَ بمفاتيحَ، بل بالهمس؛ ولاتأكلن القنائصَ، بل تصحبنها معكنَّ جريحةً إلى عافيةِ الموتِ. لقد كنتنَّ، قَبْلاً، في الموجةِ الأصلِ، تلك، المتدحرجةِ جارفةً سِمسِمَ المعقولِ كلَّه إلى الأعالي. كنتنَّ إيمانَ السُّرْفة؛ الآبارَ المدفونةَ في لوعةِ الرملِ؛ جولةَ الرُّسُلِ الرابعةَ على إلهٍ تنكَّر للرسل في جولتهم الأولى. وأنتنَّ - العشبُ المجزوز قصيراً بمقصِّ العبث العاشقِ - تُسْتقصَيْنَ بآثار العشب إلى وسائدكنَّ. بكُنَّ، لا بحماقات الميزانِ، يُنجز الماءُ تدوينَه الساحرَ. كُراتُ صوفٍ مبلَّلةٌ في أيديكنَّ تجمعْنَها للنَّسجِ. تجمعْنَ الأكوانَ عالقةً كجُفَاءِ الفروِ بأسيجةِ الحقول. حقيقٌ بكنَّ أن تفعلنَ، مبتسماتٍ يلتمعُ الزمنُ على أسنانكنَّ. لكِنَّ الأرضَ تنتهي حولكنَّ إلى صدوعِ المياهِ، أو الجبالِ القِلَلِ

الفارغةِ من ثريد السماء. حدودٌ من رسومِ اللونِ متسوِّلاً فِراخَ المعجمِ النارية حولكنَّ، حيث القبور الجَذْلى في رَعْيها، والمحيطُ المختنق من حشود المغنِّياتِ. هلاَّ أنهيتنَّ وجْبتكنَّ الخامسةَ من شطائر اللحم والغضبِ؟. تأكلنَ سريعاً كالنساء.

تمضغن ما طُحِنَ من الصيف عَلَفاً لغزالةِ الخريفِ، كالنساء،

وكالنساء تنجبْنَ الطفولةَ يلتقطها أطفالُكنَّ عمياءَ من خرائبِ الكلماتِ؛ من الكلماتِ؛ ممَّا يلي الكلماتِ؛ من العويل نقيّاً كفجرٍ في حقلِ اليقطينِ. لا أجسادَ لَكُنَّ تَهَبْنَها الليلةَ لأحدٍ. أسفُ الكلِّ على شيءٍ واحدٍ أسفكُنَّ. تنشَّقنَ المدوِّخَ، والمُرْهَقَ المتجانسَ كقصبٍ. تفادَيْن أن تتساقط حواجبكنَّ على ورقِ الكتاب ذاته، الذي تقرأْنَهُ سطوراً هي عدوى النهاية لم تتفادَها البدايةُ. واعْتَرفْنَ كالنساءِ:

إنَّه غَرْفُ الزمنِ، بدِلاءٍ كبيرةٍ، من آبارِ الأجساد.

ينمو العشبُ يابساً قربَ النوافذ؛ ينمو يابساً على جانبيِّ الحكايةِ، والقيامةُ تكتملُ، أبداً، على الرصيفِ، حيث تختلط الأحذيةُ، بعد شِجارٍ بالمناجلِ. شأنٌ رقيقٌ هذا من شؤون

أجسادِكُنَّ توصفُ عشباً تحت النوافذِ، وأرصفةً بعد الشِّجارِ.
الماجَرِياتُ هذه؛ الجَعةُ الرجاءُ بلا خميرةٍ من ظنونِ المُسْكِرِ.
توصَفْنَ؛ أمْ لا توصفْنَ؟. القَدَرُ جاثياً، يُلقِّمُ المدافئَ حَطَبه
الرطبَ في بهوكنَّ ـ بهوِ الدقيقةِ الثالثةِ، التي لم تزل تنتظرُ
الدقيقةَ الأولى. تذكَّرْنَ أنكنَّ هنا:

لا تُقاسِمْنَ أحداً جدالَ المَعَاجنِ؛
لا تَثِقْنَ بالخبز.

لكِنْ ستُقْنِعكنَّ مقاعدُ البؤسِ المحجوزةُ بالبقاء وقوفاً في
الوصف كالمرايا، التي احتفظتُنَّ بها، طويلاً، في مطاحن
الصّورِ. غيرُكنَّ، في المنحدر الآخر من خيالكُنَّ المقسومِ،
يصرخْنَ أنْ لا تتقدَّمْنَ أكثر من الذي كنتُنَّهُ في المنحدر الآخرِ
من خيالهنَّ المنقسِمِ. ذُلُّهنَّ صادقٌ في زعمه كصدقهنَّ في
البكاء على ما فقدْنَ مُذْ ظهرتُنَّ من المرايا. هُنَّ لم يحتفظنَ
بمرآةٍ، بل بالسمِّ حول حواف الأقداحِ، وبالسنينَ العصيانِ
واضحةً وشماً على عَضُدِ القرونِ. غريقٌ واحدٌ لا يكفي
لتعريف الماء بحقائقهِ. هنَّ يعرفن ذلك. غريقٌ واحدٌ لا يوحِّدُ
المياهَ. هُنَّ يعرفن ذلك أكثر من تقديركنَّ لِمَا يعرفنَ، في
الجهة الأخرى من خيالكنَّ المنقسِمِ. لكِنْ
كلبٌ
واحدٌ

يكفي

لحراسةِ

المعاني

كلِّها.

غيرُكنَّ، اللواتي يتأمَّلنَ انهيارَ الماءِ باكياً، يلتجئنَ إلى الأشكالِ معتصمةً بالنقوش الهلِعة، مداعِباتِ الثعبانَ، الذي غيَّر، منذ البداية، جهةَ الشروقِ؛ فوقهنَّ الطيورُ الرخامُ برفيفٍ من أجنحتها الشفيفة. يطعمْنَها ـ الطيورَ الرخامَ ـ بزورَ الرعدِ؛ يدربْنَها على خِفَّةِ الحجرِ، ورزانةِ الخواءِ. رزينٌ تعبهُنَّ العجولُ في ترتيب الحياةِ مطويَّةً كسراويلهنَّ في الخزائنِ. ولشقائقِ البحرِ، الملتصقةِ بسُرَرِهنَّ الزَّبدِ، تغريدُ فستقٍ بين الأسنانِ. مثلكنَّ هنَّ ينزحْنَ شمالاً كالشمال المهاجر، أو كنزوحِ الموتى جنوباً إلى الحياةِ تستعيرُ من الموتِ حذاءَه، ومن النارِ مظلَّتَها. الكواكبُ تتحرَّى مقتلاتِ النجوم في نجواهنَّ مُكْتَملةً باكتمالِ إقامةِ الله في الغضبِ. لا تلتَفِتْنَ. هُنَّ يلتفتنَ إليكنَّ الآن، من جهة المدِّ، الذي يدفعكنَّ إلى شواطئ النثر، حيث كلبٌ واحِدٌ يكفي لحراسةِ المعاني كلها؛ حيث إعدامٌ لن يؤجَّلَ؛ نقاءٌ لن يؤجَّلَ بعد المذبحةِ. البسيطُ العِدائيُّ في قبضتهُنَّ ـ قبضةِ الحقائق. عدوى البسيط يجرِّدهنَّ منكنَّ فيُجرِّدْنَ الغَرَقَ من الماء، في الجهة الأخرى منكنَّ ـ جهةِ المرايا الوحشةِ الأُمِّ

مغتذيَةً من كرز المضائق. بعد فواتِ الأوانِ هُنَّ. مثلكنَّ بعد فواتِ الأوانِ. حياةٌ رَغَدٌ بعد فوات الأوانِ. موتٌ رغيدٌ بعد فوات الأوان. موتٌ مشرقٌ، مزدحمُ الأرصفة بمناضدَ حديدٍ؛ بشارِبِي الجَعةِ الذهبية في أقداحٍ من أَرَقِ القِرمزِ. إنْ تنفَّسنَ تنفسْنَ نقوشاً على الوحشيِّ الدرهمِ؛ إنْ لففْنَ رؤوسهنَّ بالعقلِ عانساً ينتظرهن منذ الخريفِ العسلِ لففْنَ السماءَ بعجينْ من طحينِ الذُّرة. إنْ. قُفَفٌ ملأى ميتاتٍ في الأيدي إلى الأسواقِ. قلوبهنَّ قُففٌ. جذورُهنَّ أعمقُ من نهيقٍ. وهُنَّ، في الجهة الأخرى من جمالِكُنَّ الأرَقِ، ضِمادةٌ على عين الرقم، وأناملُ فارغةٌ لا تحنَّ إلى لمسٍ. أمثلكنَّ هُنَّ؟. جُبنةُ ماعزٍ، وزيتٌ على خبز الملاكِ جالساً في البرزخ المنقسِم من خيالكنَّ قبالةَ خيالهنَّ المنقسمِ: لقد سرقنَ، قَبْلاً، كغيرهنَّ، الطرقَ إلى المطاحن، وأخفيْنَ، كغيرهنَّ على عجلٍ، وجوهَ الأشباح متماوجةً أمام لهبٍ من بعر الماعزِ، مُلصَقَةً بغراءِ المغيب إلى الرؤوس. عضُّهنَّ عضُّ الماء على الأصابعِ الماءِ. لا يثقن بالماءِ، بل بالجرارِ، ولا يُقْحِمْنَ السوسنَ في مآزقِ اللهِ. اسْمَعْنَهُنَّ من الرمالِ التي بلا نهايةٍ كذيلِ الفَنَكِ؛ بلا نهايةٍ كإصغاءِ الألمِ إلى المعذَّبِ. اسْمعْنَ أشعارَهنَّ القاسيةَ على نفسها في امتداحِ الفَلَكِ السفليِّ، والأرواحِ المُهمَلةِ من حول الحلباتِ. إعصارٌ من صراخ النوارسِ في الخليجِ المدفونِ.

يسددْنَ آذانَهنَّ بالشمعِ في الخليج المدفونِ، مُذْ صرْنَ لا يعرِفْنَ ما لا يعرفه الموتُ. الْتفِتْنَ إليهنَّ. آذانهنَّ مسدودةٌ بالشمع، في الجهة الأخرى من خيالكنَّ المنقسِمِ. بينكنَّ وبينهنَّ حُمُرُ الصلصالِ هاربةً من بستانِ الله. بينكنَّ وبينهن، في الجهة الأخرى من الكثيبِ الجرَّاح، هوادجُ على ظهور الحيتان، وشحاذاتٌ يتسوَّلن عيوناً في ممرات الحدائق. أعيادهنَّ كأعيادكن بأقدامٍ مفلطحة، ناقصة الأصابع؛ أعيادٌ قفزاتٌ طويلةٌ فوق صدوع الفِردوس. قلوبٌ مَرَاجلُ. لا شأنَ للحدائق في هذا. لا تورُّطَ للأشعار في ذاك. اسْدُدْنَ آذانكنَّ، أنتنَّ أيضاً، بشمعٍ، عمَّا ستفعله الخدعةُ الغضبى بنفسِها. لكِنِ

احْذرْنَ

ما سيفعلنَ،

أولاءِ،

في

الجهة

الأخرى

من خيالهن المنقسِم، حيث لا مكانَ لأسبوعٍ آخر في شهرهنَّ هذا؛ لا مكانَ لشهرٍ آخر في سَنَتِهنَّ الضيقةِ هذه. أعيادُهنَّ السهامُ بنصالٍ قشدةٍ. أعيادكُنَّ السحبُ المذاري حول بيادر الأرواح. لهنَّ ضميرُ البرتقالة. لكُنَّ طمعُ التماثيل في

برهةِ أكثر صَمتاً. لا يتحرَّكنَ الآن. لا تتحركنَ أنتنَّ:
ذبابٌ على فاكهةِ الوعدِ الخالد.

غيركُنَّ، اللواتي يوزعن الرياحَ حلوىً، أو يتأمَّلْنَ انهيارَ الماءِ باكياً، أَعْدَدْنَ الصباحَ الحقائبَ الصغيرةَ لنزهةٍ في جهتكنَّ الأخرى من خيالهنَّ المنقسِم، وهُنَّ يُرخيْنَ الوشاحَ المشدودَ ضيِّقاً على خَصْر المعجزة. أربَكْتُنَّ ـ مثلهنَّ ـ المعجزةَ. انْظُرنَ: على كلٍّ جرْفٍ عربةٌ محترقةٌ، وحوذيٌّ يبلل بمنديله فمَ الجواد المُحتضَرِ.

غيركُنَّ، أيضاً، يرتدين خوذاتٍ مكسورةً من سقوطِ قلوبهنَّ عليها. وهُنَّ، مثلكنَّ، يُحصيْنَ نقودَهنَّ، التي لم يشترين بها، بعدُ، صِباغاً لأظافرِ الموتِ، ولا تبغاً للموتى. عظامهنَّ عظامٌ بكسورٍ زرقاءَ. والرسومُ الجيادُ على فصوص خواتمهنَّ بلا أذيالٍ. هكذا هُنَّ، تحريضٌ أزرقُ على المآثر؛ ضلالٌ مأمونٌ. واعترافهُنَّ، كأيِّ اعترافٍ، لايصحِّحُ كسورَ الأرقام.

وزِّعْنَ، مثلهن، نوى التمر، حفنةً حفنةً، على بناتِ الكمالِ الصفيقِ، وحقدَ الخبزِ على يقينِ الخبز. أأنقذتُنَّ، مثلهنَّ،

الموتَ من حصارِ الموتى؟. نقودكنَّ، كنقودهنَّ، ناقصةٌ لن تكفي شِرَى صِباغٍ لأظافر الموتِ، أو تبغاً للموتى. هيِّئنَ للمنتحرين إفطاراً بلا دسمٍ. غيرُكنَّ، أولاءِ، هيَّأْنَ عسلَ الخدعة على لسانِ الحنينِ، وعيوناً بأحداقٍ رمادٍ للوجوهِ الرماد. ضرباتٌ من كلِّ صوتٍ في الجهة الأخرى من خيالهنَّ المنقسِمِ على جهتَيْ خيالكُنَّ. عتماتُ أكواخٍ عائمةٍ على المياه المعتمةِ؛ سحبٌ تدحرج السماءَ إلى وكْرِها؛ هياجٌ سِجالٌ. ذاكَ ما يهيِّئنَ. تهيَّأنَ لمخاطَباتِ الظهيرةِ بأقدامٍ حافيةٍ، ووجعٍ حافٍ. ظَهيراتهنَّ تشريعٌ دافئ في المُخاطَباتِ. شرِّعْنَ، أنتنَّ، لكلِّ نحتٍ بياضٍ، ووزِّعْنَ ـ مثلهنَّ ـ على السطور حروفاً صَرِيفاً من أسنانِ الكلماتِ. إنها برهةُ الثَّدي الرَّائي:

ذبولٌ للأزلِ في الأُصصِ على شُرُفاتكنَّ.

لكِنْ
تحدِّثُكنَّ
قلوبُكنَّ
بروائح
النهائيِّ.

قسِّمْنَ النهائيَّ بينكنَّ وبينهنَّ، في الجهة التي لا تنقسِمُ. أعِذْنَهنَّ إليكُنَّ. أأنتنَّ معاً، الآن؟. قلوبٌ راكضةٌ على السطورِ، التي وزَّعتُنَّ عليها حروفاً صريفاً من أسنانِ الكلماتِ.

نصرٌ سَقَطٌ. لا تلتقِطنَهُ النصرَ السَّقَطَ عن رصيفِ الخير. حُثالةٌ خيرٌ. أمهاتكنَّ رمينَ بأنفسهنَّ من مراعي الجبالِ إلى السحريِّ. هُنَّ الأمهاتُ، كلَّما غيَّرْنَ ملابسهنَّ غيَّرْنَ شفقَ الجبالِ. آباؤكنَّ مراوَغاتٌ سكاكِرُ تنتقل من جَيب إلى جيبٍ. الأرضُ لن تكون طليقةً، هكذا، بخياناتها بَعْدَكنَّ؛ طريحةَ العافيةِ ـ هكذا ـ بَعْدكنَّ. أمْ كانتِ الأرض هكذا قبلكنَّ، تتشبثُ بالأبيضِ وقايةً من المُنحَدَرِ؟. وساوسُ معْجَنٌ. نحتٌ من عاجِ الحوتِ. صحوٌ في الطَّعم بعد غيومِ السُّكَّرِ. جَمالٌ وحيدُ اللونِ. ظلالٌ عصاميَّةٌ. غوصٌ على الفجر نائماً في الأصدافِ. بياضٌ خَطِيرٌ. إعدامٌ رَمْيًا بالماءِ. وجودٌ يؤكل بجلدهِ وعظامهِ. أكنتنَّ هكذا حتى النهايةِ الأولى، في الجهة، التي لا تنقسم على خيالكنَّ ـ الرقمِ أسَدِ الأبراجِ؟.

مريرةٌ

مريرةٌ كلماتُ البكورةِ، التي حدَّثتكنَّ بها بكورةُ النهاية الأولى، ذات القفزاتِ ـ كقفزاتِ الكَنْغَر ـ على الشواطئِ. هكذا حتى النهايةِ حدَّثتكنَّ الديموماتُ المتهدِّلة، يا اللبنُ الذي لم يتحوَّطْ بياضُهُ من أَرَقِ الحَمْضِ فيه. دبةُ نثرٍ في كِناشِ الوصايا. ذبولٌ للأزل في بستانكنَّ. لكِنْ

تحدِّثكنَّ

قلوبكنَّ

بروائحِ

النهائيِّ.

أتُحصِيْنَ النهائيَّ بقطراتٍ من جَعةِ الربيع؟. راضٍ عنكنَّ الذهبُ. راضيةٌ عنكنَّ البدايةُ، التي تروِّج للنهايةِ، والأتونُ البرعمُ بين براعمِ الجُرَيْسِ. أنتُنَّ تُحصِيْنَ ما خبَّأتنَّ من القُبَل المسروقةِ تحت وسائدكنَّ، وتتحدَّثنَ من السماءِ بلسان النوافير في حدائقِ الساحاتِ. كذبتُنَّ على الفُلْفُلِ. كذبتُنَّ على القِرْفةِ مُذْ صدَّقتُنَّ أنكنَّ خيالُها المنقسِم على جهتَيْ كلِّ خيالٍ. جمالكُنَّ متمايِلٌ في إصغائه إليكنَّ. صيفكنَّ مطويٌّ بين ثيابكنَّ المطوية بعناية الشتاءِ المتأنّي، وتحدِّثكنَّ

قلوبكنَّ

أنَّ

الحقَّ

مع

الجرحِ،

لا معكنَّ.

فجرٌ أجوفُ الفجرُ الذي عبورُ الأبد، بقدمي الإنسانِ، إلى الحريةِ. فجرٌ رثٌّ. نظراتٌ رثَّةٌ. غرقٌ للبحر في اليابسة. كلبان يكفيان لحراسة الذهول. لا تصغينَ

إلى

قلوبكنَّ
تحدِّثُ
كلَّ
كلبٍ
على

بابِ النقصانِ المحترفِ. أحاديثُ ريشٌ إذ الريشُ، وحدهُ، عقلُ الطيرِ. أحاديثُ بحيرةٌ. أكلُّ بحيرةٍ قفزةُ قلبٍ من زبدِ الحبرِ إلى توررياتِ الماءِ؟. قلوبكنَّ القفزةُ من البحيرات إلى سماءِ الدَّفينِ. قلوبكنَّ المناطِقَةُ الصيّادون على ضفافِ المفقودِ. قلوبكنَّ ـ مُدَّخراتُ المجهولِ، وعنادُ الماءِ؛ المزاراتُ النجميةُ؛ البقاءُ المروِّعُ؛ العواصمُ، التي من حبرِ الصبِّيدجِ. قلوبٌ هي. أساطيلُ براعمَ في ماءٍ من خيال الشجر. تعوَّدْتُنَّ أن تحملن على مناكبكنَّ عبءَ الذُّرة. قلوبٌ هي على مناكبكنَّ كعبءِ الساعاتِ الشحمِ مرتجَّةً؛ كالعشاءِ الأخيرِ لحمارِ الوحش. لا طعمَ للقُبلِ بعد نبيذٍ. لا طعمَ للقُبلِ بعد مَضْغِ الكستنةِ. قلوبكنَّ زئيرُ الصعتر بعد الطَّعْمِ وقبله. كمالٌ مَهَانَةٌ كلُّ طعْمٍ قَبْلَ قلوبكنَّ وبَعْدَها. انْتَحِرْنَ:

نادرٌ أنْ لا تنتحرَ الأنهارُ.

قَبْلٌ في نظرةِ بَعْدٍ.

قَبْلٌ في قناعِ بَعْدٍ.

تماثيلُ دافئةٌ لا تلدُ إلاَّ في المغيب، ملتفتةً، في حذرٍ، إلى منارات البحرِ. لستُنَّ ما هو قَبْلٌ في بَعْدٍ، أوْ بَعْدٌ في قَبْلٍ. انتصرتنَّ كالتماثيلِ. هُزِمْتُنَّ مثلها. التماثيلُ خيبةُ الخَلْقِ الصامتِ؛ الغضبُ صُلباً؛ الذاكرةُ الأولى؛ الثقةُ وقد حُسِمَتْ. التماثيلُ: أإتَّفقتُنَّ أن تُرْجِعَ التماثيلُ إليكنَّ نَفَسَ الجريحِ؟. رقمُكنَّ ـ كاتمُ السرِّ، الذي مزَّقَ المِثالَ أعشاراً كعويلِ الماءِ. كلبُكنَّ الموجةُ. الدِّيكُ الموجةُ كما أنكرَها البحرُ. إنْ أَحبَبْتُنَّ هُزِمتنَّ. إنْ أُحْبِبْتنَّ هُزِمْتنَّ. حبٌّ حيرةٌ كعضٍّ بأسنانِ قلوبكنَّ. البروقُ، التي تؤخذُ على مَحْمَلِ المجدِ بلا جيوبٍ. كلُّ فاكهةٍ تعثر عليكنَّ في حقلِ فاكهةٍ أخرى. وأنتنَّ، إذْ تعثرنَ على البساتين، تُسمَّينَ كلَّ فاكهةٍ باسمِ فاكهةٍ أُخرى. قبْلكنَّ، وبَعْدَكنَّ، الثمارُ تقضُّ مضاجعَ الشجر بوساوسها. أأنتنَّ تمارينُ الشجر على الهذيانِ كي تبرِّرَ للمعضلةِ قيلولتَها؟. انتصرتنَّ كالتماثيلِ. الصخرةُ تعرفُ ما يريدهُ النحَّاتُ من يأسها. الصخرةُ تُبقي لنفْسِها ما لا يعرف النحَّاتُ من يأسها. النجومُ مدافئكنَّ على طُرقاتِ القوافل. كسْرٌ لسانٌ. كسْرٌ فرْقٌ في أرقامكنَّ الثمانية كغرور الأناشيد في الأفواه. للجَمالِ مسوخُه المرفَّهونَ.

له عُذْرُه ـ عُذْرُ فجرٍ بلا ديَكَةٍ. للجَمال عذرُكنَّ ـ عُذْرُ الأناشيد على لسانِ اللاَّهي. صباحٌ نفايةٌ ينبش فيها المنسيون عن أحذيةٍ أناشيدَ، وعن طُرقٍ ناقصةٍ في الأناشيد. صباحكُنَّ الطَّمَعُ في السَّأمِ إذْ تقشِّرْنَ اللوزَ على عتباتِ المسحورِ، متعرِّياتٍ للنار المؤدَّبةِ في حمَّامكنَّ ـ حمَّام السبتِ مُقْفِلاً على الأحد خَزْنَةَ الثيابِ مغسولةً لم تجفَّ بعدُ. الغيومُ القباقيب بصدى عبورها قَرْعاً على السماءِ الرصيفِ ـ طريقكِنَّ إلى كلِّ عضٍّ. ضرْبٌ بالقباقيب في مخادع الكروبيينَ. لا تلتفتْنَ. عضٌّ من السهولِ على حوافر الجياد. لا تلتفتْنَ. إنْ أحْببتُنَّ هُزِمْتنَّ. إنْ أُحبِبتنَّ هُزِمتُنَّ. بشراعٍ ممزَّقٍ يصل الغامضُ إلى بحيراتكنَّ ـ بحيراتِ الأعالي. اتَّجهْنَ، في السطر المقامر بالسطور كلها، جنوباً إلى القُبَل؛ جنوباً كما تفعل النساءُ؛ جنوباً في كَنَفِ الصاعقة كما تفعل النساءُ؛ جنوباً كالنساء لمَّا يعثرن، بعدُ، على إلهٍ ناجٍ منهنَّ. قلوبٌ تنسف قلوباً كي تفتح ثغرةً للنجاة جنوباً ـ جنوبَ الجهاتِ المتساهلةِ كعضٍّ. تواطأْنَ لا بهمسٍ على نقْضِ الوقت، بل بابتزاز المصابيح للظلالِ. وقتٌ يفيضُ من حقائبكنَّ. أغْلِقْنَها الحقائبَ على وقتكنَّ المصبوغِ بصباغ الشفاه. تواطأنَ، جنوباً، كالنساء، على الأسلافِ محلِّقينَ تحت قبابِ الذهول. جنوبٌ يغلي بغيومه في شايٍ أخضر.

تغليْنَ، أنتنَّ، من مداعباتِ السُّحبِ الثعالبِ جراءَها؛ من زياراتِ المجهولِ متتاليةً إلى المعلوم. مجهولٌ كشتاءٍ جديدٍ. حجارةٌ مقنَّعةٌ ببراقع النساء المهجوراتِ. لستنَّ المهجوراتِ، فلا تقترِعْنَ مَنْ ستحمل عنها المجاهلُ عبءَ أمومتها. ظلمٌ ـ دليلُ الإنسانِ. ظلمٌ يأكلُ من كل صحنٍ ذهبٍ بملعقةٍ ذهبٍ. خُذْنَ الصحنَ الذهبَ والملعقةَ الذهب معكنَّ إلى الأخطاءِ ـ إخوةِ الكلمات:

إنَّه القَتْلُ القُبلةُ، أخيراً، من فم الموت.

أخواتكنَّ، أخواتُ الماءِ المهرِّجِ، يلعقن أصابعهنَّ من السُّكَّرةِ لم تُذبْ، بعدُ، في فم الجنون. يُغمى عليهن حيث يُغمى على الطين. هُنَّ الأخواتُ في الأروقةِ يحدِّقنَ إلى رسومِ الأمِّ العَدَم في نِفاسها العاشِر. كلُّ شيء معهنَّ، هناك، في الأروقة. هُنَّ الأَخواتُ هادئاتٍ في المنازَعةِ، الأكثرِ ضراوةً ـ منازَعةِ التماثيل. عبورُهنَّ حميمٌ من رعشةٍ إلى أخرى، ووضوحهُنَّ مفرطٌ في ثقته بالغريبِ. فما الذي يعذِّبكنَّ، أنتنَّ،

بهدوئه؟. كلُّ ما حولكنَّ هدوءٌ راضٍ عن هديرِ العقل، هنا، فوق سِنانِ ورقة الجرجير. هنا العبورُ فوقَ الجثث بأقدامِ نُوْرٍ؛ رذائلُ النوافير؛ الشرُّ المُستثنى من رِبْحِ القتلِ؛ حُرْقةُ القبَّراتِ؛ الليلُ المقامر بالجسور؛ المسافاتُ الخشنةُ كجِلْد الدرَّاعةِ؛ الرياحُ السِّقْطُ؛ النسورُ بأجنحتها الغسقية؛ احْتضارُ الوسائدِ؛ الآلهةُ بأنوفٍ مسدودةٍ؛ النهبُ الشافي؛ أبخرةُ المعصية صاعدةً من قدور الطهوِ؛ رثاءُ الرمادِ للجمرِ؛ الفجرُ الهُراءُ؛ الشظايا الناقصةُ من إبريقِ المُطْلَقِ الفخَّار استجمعتْها العابراتُ حيث ما من شمسٍ عرفتِ الطريقَ إلى مغيبها. هدوءٌ راضٍ عن هدير السماءِ لا تُرى إلاَّ مُعْتَصَرةً في قبضةٍ. هدوءٌ راضٍ عن نفْسه حولكنَّ. فما الذي يعذبكنَّ من رقمٍ لا يُرى إلاَّ بعينَيْ رقمٍ آخر؛ من رقمٍ يتوسَّل من رقمٍ آخر أن يعبر به رمادَ الحساب؟. راقصاتٌ على رؤوسهنَّ أجرانُ البازلتِ، هنا، بقلوبِ عقولٍ تتدحرج فوق سِنان ورقة الخسِّ. أزيزُ شحمٍ في مقلاة المُتكسِّب بأشعارِ الفحَّامين. والضربةُ الأشدُّ رقَّةً ضربةٌ بزعنفة الحوتِ. لا شيءَ أقلَّ. لا شيءَ أكثرَ. خنوعُ النُّور للهواءِ المُنتحِرِ. قُصاصاتٌ من ورقِ الكونِ. وربما مصافحاتٌ لاذعةٌ أيضاً. ربما اعترافُ القطيعةِ بأمومتها للجهاتِ. أَمامٌ مائيٌّ، وراءٌ أجنحةٌ، في المُعْضِلِ، الذي لا يثبتُ فيه أحدٌ على إيمانٍ بموتٍ واحدٍ. هدوءٌ، هنا، أطعمْته أخواتكنَّ ورقَ الفُجل،

وغصْنَ فيه غوْصَ جَمَالِ على صدفاتِ المتاهةِ. عَدَمٌ خلفيٌّ.
سماءٌ خلفيَّةٌ ـ غطاءٌ على أثاثٍ مُهْمَلٍ في ردهاتِ العقل. هدوءٌ
راضٍ عن وجَعٍ مُكرَهٍ أن يدافع عن نفْسِه؛ وعن ثوابٍ يضرب
العابرين بظاهر يده المائية. هنا. الأدراجُ السفليةُ تحت
الخندق، الذي تتسرَّب إليه المياهُ ـ خندقِ الروحِ. راقصاتٌ
على رؤوسهنَّ الساعاتُ الرَّملُ في عُشرها الأخيرِ.
لا توقفنَهنَّ. أخواتُكنَّ هُنَّ الأخواتُ اللواتي لم يوقفنَ شهيقاً
يفي بأغراضِ اللوعة، ولم

يحتفظنَ

بمرآةٍ.

لكنهنَّ ظلالٌ في الأروقة كلِّها، يحدِّقنَ إلى رسومِ الأُمِّ
العَدَمِ في نِفاسها العاشرِ. وقد خُدعْنَ، مثلكن، جيئةً وذهوباً
في الوعدِ النَّفَقِ بين الإلهِ وذعرهِ. صوتٌ بلا أظفارٍ، وسكونٌ
لا يُخْدَشُ. خداعٌ كالمُرتجى الدمويِّ. الرجاءُ الدمويُّ.
حولكنَّ ما تُحْصينَه، وما لا تُحْصيْنَ. المجدُ المُطْلَقُ ـ قاطعُ
الطريقِ. المجدُ،

الذي

لا يلائمُ

السنبلة.

جروحٌ مرغوبةٌ هنا، في الأروقة. أخواتكنَّ هنا كإيمانِ

القنَّب، وشكِّ القطن. لا يبكين، لكنْ يُسمَعُ لهنَّ زفيرٌ في أصدافِ المُورِكْسِ. أبَكيتنَّ، أنتنَّ، قطُّ؟. قَتْلٌ قُبْلةٌ، أخيراً، من فمِ الموتِ، والأمُ تترقَّبُ الصَّفقةَ الأبديةَ. فمٌ يُعفى من جرائرِهِ فمُ الموتِ رقيقاً ينصح به الصيادون الصيادين في اقتناصِ القُبَلِ. أنتنَّ تُحصينَها القُبَلَ مُذْ خبَّأْتُنَّها تحت الوسائدِ. أخواتكنَّ وزْنُ قُبْلةٍ ـ أخواتُ الأعشار في الرقم، الذي شقاءُ الرقمِ؛ سَلامُهُ المتقوِّضُ؛ شكُّهُ؛ رهافتُه التي بلا أظفارٍ؛ طباعُ المُهانِ فيه. الرقمُ الصُّلْحُ على مضضٍ، ذو التجديفِ الخافتِ؛ الفائضُ عن لزوم. الرقمُ القفزةُ؛ المتسوِّلُ؛ المَقْعَدُ على مدخل الممكناتِ؛ الأرَقُ؛ النادمُ، أبداً أنه الناجي من المعقولِ. الرقمُ الحقيبة متدليةً من كتفِ الناموس؛ الذبابةُ في السِّفادِ، العقلُ النَّحْلةُ. الرقمُ الثعلب ناجياً بجراحٍ من فخاخ الشاعر؛ السردابُ الشمعُ؛ الأكولُ كسخريةٍ. الرقمُ ـ زعمُ الرماديِّ؛ العودةُ من البلبلةِ إلى الغناءِ؛ الشاقولُ؛ التصحيفُ الحاذِق. الرقمُ السمادُ في كل فصلٍ. هُنَّ

أخواتكنَّ

وزنُ

قُبلةٍ؛

لا خواتَم في أصابعهنَّ. لا صِباغَ على الشفاهِ. لقد أكلنَ، قبل قليلٍ، عِرْقاً أخضرَ من كرفسِ الملاحم، وغسلن أيديهنَّ

في تعبِ المائيِّ. ها هُنَّ يصِفْنَ الأعشابَ متقصِّفةً تحت أقدام الأشباحِ، والثيرانِ التي تأكل أحمالَها ـ أحمالَ النازحين إلى مدنِ الحرير، قبل أن يأكلن، بعد عِرْقِ الكرفس، جَزَرةَ الحقلِ المغمورِ ماءً. إنهنَّ يثقنَ بمَنْ يَحْذَرونهنَّ. يثقنَ بطرقٍ لا تُسْلَكُ، لكنها مرئيةٌ في الكلماتِ. كلُّ ما حولهنَّ هدوءٌ راضٍ عن استبدادِ الأثرِ؛ راضٍ عن مغانم الفضة الغاضبة. للهدوء متَّسَعٌ في خشوع الستائرِ. أخواتكنَّ المُتَّسَعُ يستند فيه موتٌ إلى كتفِ موتٍ. أعصابٌ شائكةٌ. رَمَثُ ماءٍ يغلي. سَرْنماتُ المعدني الداهيةِ. الضياءُ الملعون. القَرْصُ

بَعْدَ

القَرْضِ

بأناملِ

الصَّفاءِ

المُعْضِلِ

على

أردافِ الخلائق.

هَرَبٌ يفتتحُ البقاءَ. التفِتْنَ من السفن إلى الهدوءِ حولكنَّ بأسنانٍ تلتمع كالليل في أفواه الخُلجانِ، وعيونٍ تفوِّضُ الجوعَ بالمُخَاطَباتِ. أَبْعَدَ من ضريح على امتدادِ الأفقِ أرْسِلْنَ نظراتكنَّ مطحونةً بأضراسِ الهواءِ، الذي يتفادى الأجنحةَ.

أكثرُ من هذا، وأقلُّ من ذاكَ: حَقٌّ وحيدٌ أبداً. فتنةٌ هي مَرْجعُ اللهِ. جراحٌ مكتفيةٌ بذاتها. سَحَرٌ عُقابٌ في قفصِ البلابل. تجديفٌ بلا هوادةٍ. خيالٌ

يتدحرجُ

كزِرٍّ

مقطوع.

أرْسِلْنَ نظراتِكنَّ، ملتمعةً في أفواه الخُلجانِ، إلى السفنِ. اللواتي قَبْلَكنَّ أرسلْنَها ملتمعةً من الوجودِ الرَّوعِ إلى الجلالِ غريقاً في ظلال المنائر. جريحاتٍ أقْرَرْنَ للحاضر أن يغدرَ بغدهِ، لأنهنَّ سيغدرْنَ بالضروراتِ بلا أجرٍ. أجورُ الجرحى مؤجَّلةٌ. أجورُ الجرحى المؤجَّلةُ أجورٌ يسدِّدُها الرسامون. هُنَّ، اللواتي لم يرسمْنَ خليجاً بَعْدُ على قُماشة الإنسانِ، يسدِّدْنَ للسفن أجورَ البحرِ. شكٌّ لايسدِّد دَيْنَ أحدٍ. لا يسدِّد البحرُ دَيْناً. أكثرُ من هذا، وأقلُّ من ذاك. جرعةٌ فائضةٌ من الحروف عن أفواهِ الكلماتِ. أخواتكنَّ، جرعةُ الجماعِ في الكسوفِ، لا ينظرنَ من السفن، مثلكنَّ، إلى المناراتِ مُذْ أوجَبْنَ حَظْرَ الإقامةِ في قلبٍ، أو الإقامةِ في مكانٍ. نفوذهنَّ نفوذُ المداخن. جشعهنَّ جَشَعُ الأفوكاتو. وهُنَّ، منذ النشأةِ، نُكْتٌ في المَرْوِ، وإنصافٌ راضٍ، بهدوئهِ، عن هدير الأثرِ. واضحٌ: موتى يخذلون الموتَ. موتى لا يخذلون الموتَ.

وخلٌّ راضٍ عن البزور، التي فيه. أخواتكن الرِّضا، نومهنَّ خفيفٌ، مسدودٌ من جهتيه بموائدَ مقلوبةٍ. حَسَنٌ هذا. حَسَنٌ ما ليس هذا. تدبَّرْنَ لأخواتكنَّ شطائرَ الخبز برُبِّ المعاني. أبْعِدْنَ عنهنَّ خادماتِ الغضب الخفِراتِ بشعورهن، التي لم تُسرَّح أبداً. رائحةُ النقانق فائضةٌ في السفن تدبَّرتْها التوابلُ بمشورةِ الرحيلِ. دعارةٌ كمَطْهَرٍ. رشىً كثيرةٌ من النهار إلى وريثهِ الليلِ. أحوالٌ شتائمُ. مُحْتَمَلٌ كلُّ هذا. مُحْتَمَلةٌ معاناةُ الأفرانِ من فظاظات الخبزِ. لكِنْ لن تحتملْنَ سلوكَ الكرفس في الحساء. لن تحتملْنَ الحديدَ المُرْهَقَ، والنقاءَ الكثَّ كعانةٍ. لن تحتملْنَ الحواةَ بأفعواناتهم الزجاجِ، والهمسَ الشاحبَ لمطاردِيْ الدخان في أفران الفردوس. احْتَفِظْنَ، برهةً، بحسرةِ الأثرِ، واسْمعْنَ الأملَ

مُنتحِباً

مُذْ

سُرِقَتْ

سكاكِرُهُ.

الثلوجُ قادمةٌ.

جبالُ الأعماقِ الثلاثةُ تزرِّرُ معاطفَها الحجريةَ، في أعالي الفردوس المفتوحةِ على أفقِ الحجريِّ.

طيورُ الذيلِ الحريرِ تصل أولاً إلى ضفافِ بحيراتكنَّ، هنا.

يصل المحاربون بآنيتهم النحاسِ، وأصفاد أسراهم، الذين ماتوا رَهَقاً في الطُّرقِ إلى بحيراتكنَّ.

أسيادُ الغَرَقِ يَصِلون.

أغاني الخلود الصغيرة،

وبزورُ القمحِ محفوظةً في خيالٍ أخضرَ،

والبسيطُ المتوعِّكُ،

والرَّغباتُ الذُّرةُ، كلُّها هنا.

الموتى المُخْلِصون لموتهم؛ المُخْلِصون للعظام، يَصِلون.

تَصِلُ الحقائبُ مفتوحةً إلى مصبِّ السيل.

أنتنَّ لا تسمِّيْنَ شيئاً مرتين بالاسم ذاتِهِ، لكنها الأشياء تصلُ بنقصانها في الأسماءِ؛ بتمامها في الأسماءِ؛ تَصِلُ بتمامِ أسمائها.

يصل الشُّكرُ، الذي لا يحتمِلُ التأجيلَ،

والقُبَلُ، التي تحتمِلُ التأجيل.

الخيبةُ المحسوبةُ،

والوضوحُ غيرُ المحسوبِ، يصلان.

الجَفَاءُ المُعَدُّ طاحناً بين السهول والكراكي؛ الأنفاسُ

المموَّهةُ قليلاً ـ أنفاسُ الشهوةِ؛ المنائرُ ـ تلك الجيوبُ المُثقَلةُ بدنانير النُّورِ ودراهمهِ؛ قوارضُ الجذور؛ القُبَلُ الضحلةُ؛ القُبَلُ التي لم ترتوِ من متاهةِ البارحةِ؛ الأبوابُ المُتْعَبَةُ من أسفارها؛ الإرث الشريدُ، المرفوعُ بملاعقَ ماءٍ إلى الأفواهِ؛ الشمالُ الذائبُ في مقلاة الجنوبِ؛ الحريرُ ممزَّقاً على طُرقِ خيالكنَّ: تصلُ كلُّها؛ يصلُ كلُّهُ.

بحيراتُكنَّ لا تلتفت إلى ما تلتفت إليه البحيراتُ.

بحيراتكنَّ محفوفةٌ بمخاطرِ النعيم، وعلى ضفافها مِيْتَةٌ تليقُ بأربعين؛ أربعُ مِيْتاتٍ تليق بقتيلةٍ واحدة.

ألمٌ لا يُكتفى منه على ضفاف بحيراتكنَّ، حيث سكاكرُ الحريق، التي لم تَذُبْ، بعدُ، في الأفواهِ، ومغانمُ الرُّسُل المخذولِيْن.

دجاجٌ نسائمُ على سطوح الأكواخ الأزليةِ، فوق الضفاف هناك؛ نظراتُ الهِرَرةِ متمسِّحةً بأذيال الأثواب في الأكواخِ هناكَ. هناكَ الذي يصل أولاً، مقذوفاً بيَديْ ما لا يصلُ أولاً.

يصلُ النقاءُ المتهوِّرُ، والرسومُ، التي تُطلقُ سراحَ الإنسان.

كلٌّ ينتظر أن يصل الكلُّ إلى ضفاف بحيراتكنَّ، التي استولدتْها المداعباتُ الخشنةُ ـ مداعباتُ البحرِ. دلاَّلون على حَيْدِ البحرِ. عمالقةٌ في الحزن على حَيْد البحرِ. إنكارُ الممكن للممكنِ. مناجلُ الحقول النجميةِ. المُعضلُ الأنيقُ متفهِّماً

شكوى المناراتِ على الضفاف. أهناك ما هناك؟ طحينٌ على
الأهدابِ من نشيدِ الأرغفةِ. لهوٌ صبيانيٌّ ينتهي بمَقْتَلةٍ.
أُسْعِدتُنَّ بحيراتٍ. أُسْعِدتنَّ برُبِّ الكرز على خبزكنَّ في معركة
السُّكَّرِ. يُطاقُ هذا. لا يُطاق. أفيالٌ

في

الرغوةِ،

وحياةٌ

معقودةُ

اليديْنِ

خلفَ

ظهرها.

الثلوجُ قادمةٌ.

حيتانُ العِطر قادمةٌ بأذيالها القَمَرية.

كلِّمْنَ مَنْ يصِل أولاً. كلِّمْنَ من لن يصل: بَلَحٌ سُرَرُكنَّ
الغائرةُ في لحمٍ ناطقٍ، وعليكنَّ قفطانُ الشروح الممزَّقُ. لكِنْ
اشْرَحنَ

قَدْرَ

ما يستطيع البياضُ أن يتملَّقَ السوادَ المُتملِّقَ.

اشْرَحنَ هذا، أو ذاك. لَفِّقْنَ المنطقَ في لعثماتِ الأُصصِ، وارتباكِ الريحانِ. أنْهِكْنَ الهواءَ. استرجِعْنَ الرياحَ، التي في المزادِ. يومُكنَّ هذا لن يعترف به حاضرُهُ، فلا تعتَرِفْنَ بالحاضرِ في يومكنَّ. الثلوجُ قادمةٌ. ثلوجٌ لن تغطي القلاعَ المكسوَّةَ المراصد بجلودِ المحظيَّاتِ، لكنها قادمةٌ. فاشكُرْنَ الحدائقَ على نسيانها الثلوجَ. اشْكُرنَ الطُّرُقَ. اشْكُرنَ النارَ النسيانَ. الثلوجُ قادمةٌ.

قادمةٌ بتمامها الأبجدياتُ مدوَّنةً على ناب الخنزير. الأبجدياتُ بتمام صريرها؛ بتمام أضراسها مُطبِقةً على لسانها عضّاً.

الكلابُ قادمةٌ تتبعها الحروبُ ممسكةً بأزمَّتها القرمزيةِ. الكلابُ النائمةُ على حواف الغيوم قادمةٌ.

جديدٌ بحذاءٍ ضيِّقٍ. آفاقٌ أقفاصٌ. ماجَرِياتٌ بجَمالٍ أشعثَ. بحيراتُكنَّ تتَّسع لهذا. على ضفاف بحيراتكنَّ متَّسعٌ لأعشابٍ لها أنفاسُ الضأنِ. لا ترتجِفْنَ. هذا البردُ القادم منكمشٌ على نفسِه؛ بردٌ كالنظر إلى حفرةٍ؛ بردٌ ككلِّ قادمٍ، يصل كما تصل الطيورُ الأقنعةُ. أقاسٍ هذا؟ : كلماتٌ قاسيةٌ

على

لسانِ

الفَناءِ

الأبكمِ.

سطرٌ يَقِظٌ في ملاطفاتهِ يفوزُ بقلبِ سطرٍ يليهِ: سطوركُنَّ، أَمِ الكلماتُ، في ما لن يصلَ؟. لا تُسأَلْنَ. لا تَسْأَلْنَ. الجريحاتُ يصبغن أضافرهنَّ بالأرجوان قبل أن يصلن إلى الضفافِ. تصغيْنَ إليهنَّ من السفنِ. تصغيْنَ بسَمعِ الشجر إلى حفيف الظلال. عجينٌ لم يختمر، بَعدُ، عجينُ الضرورة. حنطةٌ لم تُطْحَنْ بَعْدُ. هيامٌ هيمنةٌ. اتَّجهْنَ إلى القُبَلِ جنوباً. أمَّهاتكُنَّ يتَّجهن جنوباً إليكنَّ. هُنَّ الأمهاتُ قُتِلْنَ في أيلول الثاني كي يُبْعَثْنَ في زفير القصب على ضفاف بحيراتكنَّ. كُنَّ الجرحَ الحاسمَ؛ القُبَلَ الحاسمةَ أمَّهاتُكنَّ. شجيراتُ العَفص على جانبيِ القلبِ الميزانِ؛ بل مشاغباتُ القلوبِ الصغيرة على جانبيِ القلبِ الميزانِ. أهُنَّ أمهاتكنَّ على جانبيْ كلِّ شيء؟. عرفتُنَّهنَّ في أعشاشٍ كُراتٍ تتدلى من شجر الضحى. هَمْسَاً التَفَتْنَ من حناجر البرواقِ المغتَصَب إليكنَّ؛ من غمغمات الصخور، وزئير البراعم على كل غصنٍ؛ من هيئة النبضة الثالثة في قلب العاشقِ؛ من النظرةِ النادرةِ ـ نظرةِ الرقمِ المُلْحِد. التَفَتْنَ إليكنَّ مُذْ كنتُنَّ لامبالاةَ آبَ بالشهورِ. الأمهاتُ لا يلتفتنَ

عادةً. لكنهنَّ التفتنَ إليكنَّ من الجهةِ الثانية لخيالكنَّ المنقسِم.
السحب تغرقُ، رويداً رويداً، في مياه السماء كلَّما التفتن
إليكنَّ من خيالِهنَّ المنقسمِ على جهتَيْ كلِّ خيالٍ. غرقتِ الريحُ
في لهاثهنَّ، والسحبُ في مياهِ السماءِ. حروباً هَمْساً من حناجر
البُرواقِ بُعِثْنَ. أَمْ هُنَّ أيلولُ الثاني شهرُ أقدامهنَّ مُخضَّبَةً بصبْغِ
الأثرِ يعبرن بها إليكنَّ، حيث تُجاوِرْنَ الكاهناتِ على شجر
الزيزفون، من الربوةِ المُشرفة على الرجالِ الأرصفةِ؟. موتٌ
مرتعدٌ فَرَقاً. جراحٌ مُخْلِصةٌ. ألمٌ مُخْلِصٌ. متجانساتٌ في
أحزانٍ متجانسةٍ، وَلَهنَّ سلامةُ الحطامِ أمَّهاتُكنَّ ـ ثقةُ البحرِ
باليابسةِ. شائعتُهنَّ أنتنَّ ـ شائعةُ الجسد الواحد تتناقلُها أرواحٌ
لا تُحصى. لا ضمانَ لشاطئٍ. لا كفيلَ لموجٍ. شعوذةُ القرميد
الأسود فوق الأكواخ، على المُنحَدَرِ الخفيفِ إلى بحيراتكنّ.
أمَّهاتكنَّ بُعِثْنَ كَفالةً؛ بُعِثْنَ اغتيالاً تنجو منه الثُّديُّ اليمنى
للعذراواتِ. حِصَصُهنَّ في الرُّجعى حِصَصٌ غبراءُ. وقتُهنَّ
مقلاةٌ بلا زبدةٍ. لكنهنَّ أُمهاتُكنَّ قُتِلْنَ هرولةً بين الأسِرَّةِ الناقصة
في ممرِّ الحريقِ. وَلَهنَّ أردافكُنَّ المبشِّرةُ بأنبياءِ اللحمِ وآلهته
المرتعِشةِ رغبةً. لقد أنقذْنَ ما يَقْدِرنَ عليه في بعثهنَّ: المصائرَ
ـ أنقذْنَها ـ من سطواتها المرِحة، وأنقذْنَ القتلى فأبقيْنَهم
قتلى. مؤلمٌ إذْ يتحدَّثنَ عن أخواتكنَّ، في الجهة الأخرى من
خيالهنَّ المنقسِم على جهتَيْ خيالكنَّ. هو هكذا. الألمُ هكذا.

وجوهٌ تتماوج، شمالاً، في شفقِ القطب؛ جمالٌ ممحاةٌ؛ نُفايةُ شمسٍ؛ مطرٌ عزلةٌ. لا ينجو ألمٌ من أمهاتكنَّ. هو هكذا:

ما من

حظٍّ

للغابة

بعد

صرخةِ

التائهِ

الثانيةِ.

لا أملَ للعاصفة في إيقاظ الحِيتان، مُذْ كانتِ الحيتانُ، وحدها، تنام في العاصفةِ. أمهاتكنَّ لم يحتفظن بعاصفةٍ في مرآةٍ. لم يحتفظنَ بكنَّ في مرآةٍ. لم يحتفظْنَ بمرآةٍ. هُنَّ المنازَعاتُ بين السيل والليلِ، والحروب المجتزَأةِ من سِياقِ المعاني. ينجو بهنَّ الحبرُ من الحبرِ. تنجو السطورُ بهنَّ من براثنِ البياضِ. اكتملَ من حولهنَّ أن يتنازل الصعترُ عن لوعته للنعناعِ، والخبزُ للماءِ عن أمله. قرِّبْنَ آذانكنَّ تَسْمَعْنَ إلحادَ الملحِ، ولهاثَ الأُجراءِ يحرثون المغيبَ أثلاماً عميقةً. عميقاً ينزلْنَ إليكنَّ، في الجهة المنقسِمة من خيالهنَّ على كلِّ مرآةٍ. مُلاطَفَاتهُنَّ ملاطَفاتُ الحمَّى، وشروحُهنَّ عن عناية البريقِ بالذهبِ شروحٌ عَضٌّ. أهُنَّ يرتعشْنَ، إذْ ينزلنَ إليكنَّ من جهة

خيالهنَّ المُنقسِمِ على كلِّ خيالٍ، أَمْ ترتعشُ ورقةُ الحورِ؟. يأسٌ مُلطَّفٌ؛ نميمةُ حروبٍ لمَّا تتراجع الحروبُ مخذولةً، ووسطاءُ يستيقظون عنوةً. خيالُهنَّ هذا، بَلْ

قَضْمُ

الأظافرِ

حنيناً

إلى

القتل؛

بَلْ تكفيرُ التعب عن مذاهبهِ؛

بَلْ هذا وذاك معاً:

خيرٌ

في الظلِّ.

شرٌ

في الظلِّ.

سِفاحٌ رياضةُ الفاكهةِ.

مُهِيْنٌ مؤرِّخٌ. أمهاتكنَّ يغتسلن

في الثياب عليهنَّ. شمائلُ السأمِ؛ شمائلُ الحصاةِ مكسورةً تتقطَّر من حواشي ثيابهنَّ المغْلية في قِدْرِ الكونِ ارتديْنَها. ارتديْنَ بخارَ الطاهرِ المغليِّ في النَّزَقِ. لن ينجو منهنَّ ألمٌ صامتٌ كألمِ القِرفةِ؛ لا المُسَخَّرون لجمع الظلالِ؛ لا مَجالسُ

الموتى حول الطبول؛ لا النَّباتُ الصوتُ؛ لا القدَمُ مُتحلِّباً من الغصن المكسور. معانٍ عراكُ دببَةٍ في مخادعهنَّ، على جهتَيْ خيالكنَّ المنقسِم على المرايا. نعاسُهنَّ كَدُّ الأرقام في مخادعهنَّ. يقظتهُنَّ بَيْضُ سحابٍ يفْقسُ عن أقوابِ الليلِ. أُمهاتكنَّ قُتِلْنَ؛ يُحْسَبُ أنْ قُتِلْنَ كي تُبْعثْنَ خوارقَ في الصّور لم يؤكِّدْها اللهُ حَذَراً من فتنةِ الصُّورِ. بُعثْتُنَّ مرايا، تلِدْنَ أطفالَكنَّ، أبداً على طينِ الجُرْفِ بعناية اللونِ القابلِ ـ قوَّادِ الصّورِ كلِّها على أرصفةِ النَّشأةِ. أمهاتكنَّ هُنَّ. لم يُقْتَلْنَ بَعْدُ، بل يستعِرن من الطباعِ، إذْ يستعرنَ، الغضبَ المبتدئَ، ليعجِّلْنَ بالنزول إليكنَّ جريحاتٍ أُصِبْنَ لا في مقتلٍ. نزولهنَّ من جهاتِ المياه إليكنَّ. لَسْنَ ما هنا. لَسْنَ ما هناك. وَسَطٌ كسورٌ في الوسطِ الكسورِ. اعتمادُهنَّ على الموت معتمِداً على المبشِّريْنَ بثقة الحياةِ. يسقطْنَ، نزولاً، إليكنَّ من الأعالي فيجرفْنَ الأعالي إليكنَّ. عَدْلٌ من عظام الكواحل حيث يعبُرْنَ. رمادٌ أنفاسٌ. مشافي آلهةٍ. سَجْعُ الذهب صُهَارةً على سطور الأشعار. حظوظٌ مشبوهةٌ. أمهاتكنَّ هُنَّ ـ غرامٌ مُكتمِلٌ في حفرةٍ. دعْنَهنَّ على أسِرَّة الجرحى المُخَلَّعة في خيام السماءِ. أغلِقْنَ المرايا عليهنّ إذْ ينزلْنَ. لم يُقْتَلْنَ. أَمْ قُتِلنَ؟. جلودٌ مرقَّعةٌ بورق القِيْقَب جلودُهنَّ. وها هُنَّ يُعِدْنَ إلى الآلهة تَمرَ خيالهم. احْفظْنَهنَّ

في

المرايا.

لكِنْ

لا

تحتفظنَ

بمرآةٍ

بعد

الآن.

نَسْلٌ بلا وسائد.

ما هَمَّ أنْ تكُنَّ بلا وسائدَ، أنتُنّ ـ حلقةُ اللحم المفقودة؟.

تبرَّجْنَ، هنا، للَّواتي تبرَّجنَ لكُنَّ هناك، فالثلوجُ قادمةٌ.

عرباتُ النهاية بعجلاتها الحجرِ قادمةٌ.

أسْفارٌ عظامٌ. خنازيرُ هاربة من مزرعة الأرواحِ، وشفاهٌ منْتَشَلةٌ من قُمامةِ الشكل. المعاركُ في نزهاتها ككلابِ الحدائق في نزهاتها. قادمٌ ما يعتذرُ، وما لا يعتذرُ. ألعقلُ

يُحصي

صداقاته

بأرقامِ

الهزائمِ. والثلوجُ قادمةٌ.

عَلَفٌ كثيرٌ في مذاود النجوم الصغيرةِ ـ خرافِ الغيابِ.

الغيابُ قادمٌ.

مطارقُ ضعيفةٌ في الأيدي الضعيفة. الضرباتُ الضعيفةُ قادمةٌ.

صدى الأعقاب في أروقة المعاني. وعيُ الزنجبيلِ ـ المعاني. الزنجبيلُ قادمٌ بجراح التوابل القادمة.

ميّتٌ قديمٌ يُري الميّتَ الجديدَ رسُومَهُ. الْرسومُ قادمةٌ.

عوالمُ مجفّفةٌ كزعانف القِرْش. صُورٌ مجفّفةٌ. أمكنةٌ مجفّفةٌ. قدومٌ مجفّفٌ على أتمِّهِ اقتداءً بالتين مُجفّفاً.

أممٌ لا تُستَساغُ في المرة الثانية. ما لا يُستساغُ مرةً؛ ما لا يُستساغُ قادمٌ.

أكاذيبُ مُتْقَنَةٌ بين العسل والنَّحْلِ. الأكاذيبُ قادمةٌ.

زمجراتُ الطِّلاءِ على الأظافرِ. الْطلاءُ قادمٌ.

الظهيراتُ الأفاعي. الترابُ الناسخُ. السدودُ. الأكواخُ على حافَةِ السطرِ المتقوّضِ الكلماتِ. الْصحارى الأسِرَّةُ. النوافذ وهي تمدُّ ألسنتها سُخريَّةً. شللُ المشهدِ. البرتقالُ بطَعْمِ القاعاتِ المُقْفَلةِ. الْحروبُ المعقولةُ. الْساحاتُ المتملْمِلةُ من

تماثيلها: إنها ديدانُ القَزِّ تلتهمُ الورقةَ الخامسةَ في العقْدِ بين الله والیقینِ. الْیقینُ ـ قُبْلةُ أخواتكنَّ المتذمِّرةُ ـ قادمٌ.

غزالاتٌ كمِحنةٍ بلا أضراسٍ.

سفنٌ تتنكَّرُ في صوَرِ ماءٍ.

توابلُ لا توقِفُ شجارَها: أغْلِقْنَ المنحدراتِ إلى بحیراتكنَّ. أُسعِدتُنَّ حیاةً لا تعتذر عن ندمِها. أُسعدتُنَّ سُتراتٍ ملطخةً بعشبٍ مقصوفٍ. لقاءٌ نبیذٌ في مسائكنَّ السَّكرانِ على ضفاف البحیراتِ. أُسعدتُنَّ لقاءً. أُسعِدتُنَّ قَطْفاً من غصنِ اللیمون. الْثلوجُ قادمةٌ.

أَلرُّسُلُ الطحینُ. أقیالُ السُّحبِ الرملِ قادمون.

قطاراتٌ على حافة الربیع المجروفِ أسفلَ بسیولِ الذهبِ. المقطوراتُ المهشَّمةُ قادمةٌ.

ما لَهُ الكلُّ قادمٌ إلى بحیراتكنَّ؟. البحیراتُ منخفضةٌ درجةً تحت عفافِ المیاهِ. ارْفعْنَها مدفَّأةً بلزومِ اللاَّمُرتجى درجتَیْنِ فوق عفافِ المیاهِ. الْبشائرُ ملساءُ كشراراتٍ نُقِعتْ في الزیتِ. الْبشائرُ ـ سُعارُ الطینِ، والخَبَلُ الذي یُشتهى. دفِّئنَها البشائرَ بمعاطف النَّحسِ الصبورِ على الإهاناتِ، فالثلوجُ قادمةٌ.

أتتدبَّرنَ مَخْرجاً؟. كلُّها المخارجُ، أبداً، حَرَجُ المداخلِ. كلُّها المخارجُ بعثٌ للسنبلةِ في أملٍ شفیرٍ. أملٌ ألمٌ. موتى محترِفونَ، قادمونَ. الْثلوجُ قادمةٌ.

ركلاتٌ لا تهدأ. في كُلِّ مكانٍ ركلاتٌ لا تهدأ. فكرةٌ صَفيرٌ. أَنِزالٌ هذا، الذي تَخُضْنَهُ؟. ظاهرٌ كزهر الكوسا مقليَّةً. ظاهرٌ أَلْزمْتُنَّهُ أن يكون مَخبأً. أَدفَّأْتُنَّ الظاهرَ، الضِّعةَ في كلِّ قَسَمٍ؟. أدفَّأْتُنَّ السأمَ الناسكَ؟. قلوبٌ ملتويةٌ. قلوبٌ زلَّةُ لسانٍ. تصرَّفْنَ أنتنَّ كزلَّةِ لسانٍ؛ كما لا لسانَ في فمٍ، فالثلوجُ قادمةٌ.

يموتُ بموتكنَّ الموتُ. ما يخدعُ الموتَ قادمٌ.

ثِقلُ عصيرِ الجزر على ألسنةِ القَتَلةِ. الْقتلةُ قادمون.

خيالُكنَّ لن ينقسم، بعد الآن، على جهتَيِ المرآةِ. وما ترسُمْنَهُ ترسمْنَهُ بفرشاةٍ لن تُغْمَسَ في اللون، بل في اللهاثِ. دفِّئْنَ كلَّ لهاثٍ. قلوبٌ شاحبةٌ تصبغ المُحْتَمَلَ بفرشاةِ الفكرة القِرمزيةِ. بيضٌ نِيمبرِشْت، وكُلى أرانب في صحونكن. في الأقداح أنفاسُ المغيب مُقطَّرةً. طوفانٌ قوَّادٌ يعرض عاهراتِهِ على كلِّ رصيفٍ من الوقت. طوفانٌ كلبٌ يتبوَّل على ساقِ شجرة الأصل الكُليِّ. لا لاهِ إلاَّ اللاهي بأرقام الحَسَبةِ. دفِّئْنَ أرقامَ الحَسَبة بخدوشٍ من مخالب المُعتدِلِ. دفِّئْنَ الخرائبَ الساعاتِ، والمجازرَ الراعيةَ، والوديانَ المصبوغةَ ريحاً بفرشاةِ الجبلِ. خيالكُنَّ لن ينقسم، بعد الآن، على جهتيِّ المرآةِ. الْمكانُ فقاعةٌ في كؤوس جَعَتكنَّ. زحامٌ أنتنَّ. الأسرارُ ـ الأيدي تلمس الأرداف في الزحامِ. الأسرارُ ـ الأقدامُ تتبع

الذاهبين إلى يأسهم العادلِ. أُسْعِدتُنَّ في أيلولَ يمسح عن أقدامكنَّ غُبارَ المقتلةِ. أيلولُ قادمٌ.

طيورُ طَيْطَوى تتخبَّطُ في قلق القصبِ. الخنازيرُ اللونُ تَرِدُ البحيرةَ الأزلية بخنانيصها؛ وعصافيرُ تغتسل في الحوض، الذي تشرب منه البغال. شِنْكالٌ لحمٌ يرفع البحرَ من حلقته الكبرى ـ حلقةِ الموجة الأصل ـ كضأنٍ مذبوح، والمكانُ مجتهدٌ، كعادته، في التلفيقِ. المكانُ التلفيقُ قادمٌ.

سطورٌ تكتبنها على الوحشيِّ ـ السنبلةِ المكسورةِ سطورٌ مستقيمةٌ. لا حدودَ لحزن السطور المستقيمةِ. والواحدةُ منكنَّ، التي لا تشبه غيرَها، تشبهُ الصيفَ. حياؤكنَّ السمكةُ النمرُ حائمةً حول الدلفين. الجبالُ المقامَراتُ الحجريةُ حول بحيراتكنَّ. السأمُ المتأخر عن موعدهِ. تسْمعْنَ كلَّ هذا بسمعِ الماءِ؛ بسَمعِ البقْلةِ حامضةً كأعماركنَّ. وضوحكنَّ يؤكلُ نقيّاً بأسنانٍ واضحةٍ، وتشتمن الوردَ بشتائم الوردِ. وعْكةُ الحندقوقِ أنتنَّ. انتصارٌ أنتنَّ يسرق البَيْضَ من مَدَاجنِ البط، وتسبقْنَ القتلى حين لا أحد يسبق القتلى، يا سُباتَ الأثر؛ أمهاتِ الغرائب مُتنكِّرةً في قِشر الباذنجانِ. الْمجازرُ الراعيةُ قادمةٌ. قادمةٌ دببةُ الأنهار المفقودةِ. الأفعواناتُ ـ توريةُ الأرضِ. المداخن بَعْدَها المداخنُ. الثلوجُ قادمةٌ.

الجراحُ الملاعقُ. الْجراحُ الأحذيةُ. الْجراحُ السترات بلا

أزرارٍ. الْجراحُ الغلايين الأخيرةُ بين أسنان الآلهة الأخيرة.
الْجراحُ الجدرانُ؛ الأَسِرَّةُ؛ القمصانُ؛ لِفافاتُ التبغِ. الأصلُ الإهانةُ قادمٌ.

لا شيءَ يعلو القممَ الجبلية سوى تلَف السماءِ. أرواحٌ عجينٌ تنتظر الفرَّانين. عضٌّ أثريٌّ. لهاثٌ أثريٌّ. نجوى الصميمِ المنكشفِ. الهوى الرِّعافُ. همهماتٌ في قدور الفوَّالينَ. أإفطارٌ من فولِ الرقمِ أُعِدَّ للبقاءِ المُرهَقِ من تسخين المياه في الحمَّاماتِ؟. قوِّسْنَ البقاءَ طَرْقاً على السندانِ. قوِّسنَ رسومَ الوقتِ على البرهةِ المدبوغةِ جيداً بعد سَلْخِ الوقتِ.
الْسَّلخُ قادمٌ.

نقاءُ الحلقاتِ المفقودة كلِّها. نقاءُ الرقم الفالجِ، والدروعِ المُعتكِرةِ. في أيديكنَّ النقاءُ ـ الأظافرُ مقضومةً من عبوركنَّ الخلجانَ سُحُباً مقضومةً. مجسَّماتٌ أثيرٌ تعرِضْنَها على البنَّائينَ. تعرضْنَ على الوقتِ مساءً مُلغىً من مواعيد النهار المُتعَبِ. ارْفعْنَها المجسَّماتِ الأثيرَ عاليةً على عَمَدٍ تخذلُ العمارات كاستغاثةِ الرمادِ بالحلاَّقيْنَ. لا تتحفَّظْنَ، إنِ استغاثَ الرمادُ بكنَّ، عن شيءٍ. لا تتحفَّظْنَ عن استغاثةٍ. وحده الليمونُ يتحفَّظُ عن مدائح الخلِّ. الْخلُّ قادِمٌ.

شموعٌ صغيرةٌ تحت أضلاعكنَّ اليسرى. الْمواعيدُ، التي بذلتُنَّها سخاءً لحامياتِ الرحيلِ الرُّصَّد في الأبراج الماء.

الجنودُ المائيون. الناجياتُ ـ الفصائلُ الناجيةُ من مذابح الرقمِ السابعِ. الضرباتُ بمَرافِق الأذرع على الرخام ـ الضرباتُ الموجعةُ قادمةٌ.

لا تُعَدُّ السنونُ في عهدكُنَّ، لا القواريرُ المكسورةُ تُعَدُّ، لا العيون مهجورةٌ تتتبَّع عنادَ الصّورِ المهجورةِ. العنادُ الوساطةُ قادمٌ.

نَهَمُ الزُّرْقة، وصيامُ السوادِ. أصُمْتُنَّ السوادَ من فجرهِ إلى مغيبهِ؟. أأطعمتُنَّ الزُّرْقةَ نزقَ الأرانبِ؟. أرواحٌ تتفجَّر في لَمْسِها الأبديةَ. موتٌ بخطوطِ خطأٍ في الرسم على الستائرِ. ارْفعْنَ أذيالَ الثيابِ في العبور بأجسادكنَّ رسوماً على الستائرِ. ثيابُ الأبديةِ الطويلةُ حتى عقبيِ المومس ثيابُكنَّ. ارْفعْنَها أذيالَ الثياب في عبور أجسادكنَّ رسوماً على الخزفِ ـ القبضةِ مرتعشةً في وجه الغضب الهادئِ. لا تتشكَّيْنَ من طوفانٍ. لا تتشكَّيْنَ من السماءِ الطاسةِ فارغةً تمتدُّ بها يدُ الله إلى المسالخِ. سَفْكُ العَضَلةِ أملَ العضلةِ لا يُقلِقُ. مَطْهرُ القططِ شاردةً في أزقَّة أرواحها؛ مَطْهَرُ المُحْتَمَلِ الخصيِّ لا يُقْلِقُ. الْمَطْهَرُ السَّفاحُ قادمٌ.

دروعٌ غَرَقٌ في أيدي الغرقى الجوَّالين، خلسةً، على خنادق حروبهم الزرقاءِ. خواتيمُ منقلبةٌ على ظهورها كسلاحف لم تدفن بَيْضَها عميقاً. دروعٌ، وخواتيمُ، في ظلالكنَّ ـ ظلالِ

السواد مُنْتعشاً بشرابه من يدي البياضِ المنتقم. تهتديْنَ الى كلِّ شيء في الأبهةِ إذْ تتجرَّعُ الأُبهةُ المعقولَ كسُمٍّ. لا رحيلَ قبل أن تستيقظنَ. لا رحيلَ بعد أن تستيقظنَ: الْبقاءُ يترفَّعُ أن يُريَ أحداً قدميه المسلوختين. البقاءُ، بقدمين مسلوختينِ، قادمٌ.

الرمادُ الراقص في سَحابِ الصباحِ قادمٌ.

خنفساءُ المراتب الخمسِ؛ الغمامُ العتَّالُ؛ الشُّبهةُ: بالشُّبهةِ، وحدها، يهتدي الخطأُ إلى الأوفياءِ. الأَوفياءُ، المتدحرجون في المنائرِ متدحرجةً من خيالِ البحر إلى اليابسةِ، قادمون.

الطيورُ بأذيالِ ماءٍ، وأجنحةِ رملٍ، قادمةٌ.

رحمةُ الموحشِ؛ الظاهرُ مُفَسَّراً بلسانِ المُشكلِ، قادمانِ.

خيالُكنَّ معلَّق تحت وكْرِ السماءِ الحدأةِ. شؤونكنَّ بلا خيالٍ؛ شؤون واطئةٌ كأعقاب الأحذية؛ كشَرَفِ الخريفِ؛ كالشجرةِ متكلِّفةً في ترتيب ظلالها؛ كخمولٍ نَشِطٍ في مَنطقهِ؛ كحذرِ الحديدِ. لَغَطُ القوَّةِ ما تسمعن من شرفاتكنَّ. تسمعنَ الكونَ المُقلِّدَ دورةَ الشَّبَعِ الزهيدةَ. إنها

الحياةُ

كتبرُّجٍ

بلا

مرآةٍ؛

كحِلاَقةٍ

بلا

مرآةٍ؛

كعبورِ

الغابةِ

لَمْحَاً

في

خيالِ

الصقورِ. الصقورُ قادمةٌ.

لا تتدبَّرْنَ مَخْرَجاً لمذاقِ البعيد في الفم ـ مذاقِ أجسادِكنَّ العضِّ، وقُبَلِكنَّ العضِّ، ودعاباتكنَّ العضِّ، وحُبكنَّ العضِّ. مَخْرَجٌ عضٌّ مذْ وَسَمْتُنَّ الوجودَ عضّاً على الحقائقِ. لا تتدبَّرْنَ مَخْرَجاً للنهار من أكيدهِ. لا تتدبّرْنَ مَخْرجاً للعقيقِ المُحرِّضِ. حين تبكيْنَ تَبْكيْنَ من أجل كل شيء. تدبَّرْنَ مَخْرجاً للبكاءِ في المصادفات المشوَّشةِ. نهارٌ قارِضٌ. قُبلٌ عنيدةٌ. أَغْدِقْنَ قلوبَكنَّ على الجرحِ ذاتهِ ـ جرحِ الجبلِ. الْجبلُ قادمٌ.

مبراةُ الماء بين أناملكنَّ. الأقلامُ تُبْرى طويلاً بالمبراةِ الماءِ

قبل مَزْجِ الحروفِ بالتسوياتِ. نوبةٌ مائيةٌ ـ صَرْعٌ في السطور

فلْتتفاقم الديون، التي لا يسدِّدها البياضُ للحبرِ. ديونٌ أنتنَّ متفاقمةٌ. ديونٌ تتراكم لن يؤخِّرها العَدَمُ بصكوكٍ لا تُصْرَفُ. رسائلُ باقلاَّءُ. رسائلُ كَمأٌ في البريد إليكنَّ من أمهاتكنَّ كتبْنَها بأقلامٍ بُرِيَتْ بمبراةِ الماءِ. رسائلُ يخفِّفن بها عنكنَّ بلاءَ السِّلْمِ. ديونُ السِّلْمِ أنتنَّ. الهواءُ الشائكُ حول المعسكراتِ كلِّها. فطنةُ الظِّلْفِ لا يَمَسُّ حجراً في عبورهِ. الْشقاءُ المُرْهَفُ، ورحمةُ الخيبةِ. الْخيبةُ قادمةٌ.

آباؤكنَّ الآباءُ الساعاتُ الرملُ؛ الوثباتُ القصيرةُ قبل بلوغ الوَشَقِ وثبةَ القتلِ. لَوْمُكنَّ لَومُ الدروعِ الدروعَ أنكنَّ كبُرْتُنَّ جَمالاً بعد آخر في القطرةِ، التي ستسقط فجراً عن ورقة الكُرَّاثِ، وأنكنَّ تروِّعْنَ النهائيَّ بأرواحٍ تتزلجُ على منحدراتِ المفقودِ. كلَّ صباحٍ تُعلِّقنَ الليلَ إلى الشِّنكالِ، الذي يتدلى منه البطُّ مذبوحاً في المطابخِ. عقابٌ وحْيٌ، واعتدالٌ يُحْذَرُ. ما بكنَّ لا تَحْذَرْنَ المعتدلَ؟. الْمعتدلُ السَّهْوُ قادمٌ.

قَسَمُكنَّ مثيرٌ إذْ تقْسِمْنَ بالتَّابل البهلوانِ، والأكيدِ المغامرِ. أقْسِمْنَ، ما تشأْنَ، بهيامِ الرملِ حول الخرائبِ. جنوحُ الرقم إلى الزندقةِ قَسَمُكنَّ. تدَّهِنَّ بالرقمِ؛ بقُطارةِ الرقمِ، وتسدِّدْنَ إلى عرقوبِ الشكل سهمَ الماهياتِ. اللَّونُ لاذعٌ على شفاهكنَّ. البشرى لاذعةٌ على الألسنةِ. والقمرُ، الذي تؤنِسْنَهُ

قمرٌ قطيعةٌ. كلَّ ليالٍ تعلَّقنَ الصباحَ إلى الخطّاف، الذي يتدلى منه الضلالُ المُحْتَرِسُ ـ ربيبُ الطهاة في المطابخِ. لا شكرَ على حُبٍّ. لا شكرَ على الحياةِ. قاسٍ أن يُمتَهَنَ الغفرانُ. امْتَحِنَّ الشكرَ كلَّهُ. امْتَحِنَّ الغفرانَ، فأنتنَّ على قيد ركْلةٍ من الملاكِ المخذولِ. وفاءً للتعب تسدِّدْنَ ديونَ العدم ذي الصكوكِ التي لا تُصرفُ. وفاءً للدمويِّ. دمويّاً يُجازُ الكمالُ. الكمالُ الوفاءُ للدمويِّ قادمٌ.

فروقٌ كجناحٍ. سَعْدٌ لاذعٌ كاللون لاذعاً على شفاهكنَّ. الرسلُ الطيوفُ يسبقونكنَّ إلى القلاع الطيفية. لا تأخذنَ الأمرَ على مَحْمَلٍ. طيوفكنَّ تجوب العقولَ القُرى بأقاصيص المراعي المحترقةِ، والملاحمِ الصغرى عن عظام العدَّائينَ. تمردٌ في القرى. تمردُ الشعير في حقول القرى. لا تأخذْنَ القرى، والحقولَ، على مَحْمَلٍ. قلوبٌ معطَّرةٌ. أقدامٌ معطَّرةٌ. ألمٌ معطَّرٌ. نظراتٌ تؤكل فجراً معطَّرةً كالأبد المُنْتَحَلِ. اشْرَبْنَ من الإناءِ الخزفِ مهازِلَ الخزفِ. لكِنْ

لا

تحملن

عطراً

معكنَّ

في

الإناء

الخزفِ

إلى

الحريقِ. الحريقُ قادمٌ.

ملاعقكنَّ ملاعقُ كَيْلِ الغضب سُكَّراً في الأقداح. ذوَّبتُنَّ الغضبَ سُكَّراً في الأقداحِ. ذوَّبْتُنَّ الجمادَ الحنينَ سكَّراً في الأقداحِ. أمنيعٌ انكسارُكنَّ في السُّكَّرِ؟. تتكسَّرنَ ثقةً بغنجِ الرماد المُصْلِحِ، والنيرانِ الكَرَمِ بلا حدودٍ. تتكسَّرنَ اتِّفاقاً من البحر على أجور السفن يسدّدها أشباحٌ ولدوا ملوكاً. سفنٌ عطْرٌ في المخادعِ المياهِ ـ مخادِعِكنَّ. لااتفاقَ على حريقٍ بَعْدُ مُذْ لم تُنْجَزِ الأغاني. أصابعكنَّ مغمسةٌ في ثريد الأغاني. الْعَقْنَها. الأغاني قادمةٌ.

مرقَّةٌ مجدُكنَّ مجدُ الثقة بالشمع. رمادٌ طَوْفٌ على المياه في مخادعكنَّ ـ المَخَادِعِ السفنِ. انزَلْنَ سلالمَ النازلين من السفنِ بأحمالِ رياحٍ إلى الموانئ. متوعِّكاتٌ رفاهةً أنتنَّ ـ رفاهةَ الزبد تطأْنَ به الموانئ. لا حولَ إلاَّ الغضبُ. لا قوَّة إلاَّ المغيبُ. حسرةٌ صَدَفَةُ الأعالي. هواءٌ طُرُقٌ. قَدْرَ ما تستطعْنَ. هواءٌ طُرُقٌ. قَدْرَ ما تستطعْنَ. رمادٌ طُرُقٌ. قَدْرَ ما تستطعْنَ. فتورٌ طُرُقٌ. قَدْرَ ما تستطعْنَ: أمثالٌ طُرُقٌ، قطراتُ نبيذٍ على غمدِ مديةٍ. قَدْرَ ما تستطعنَ. قَدْرَ ما تستطعْنَ. أَمْ لا تستطعْنَ غيرَ

ما يستطيع وخزٌ بالإبرِ؟. بلغتنَّ عمرَ الأربعاء. بلغَ الأربعاءُ، أخيراً عمرَ الحدائقِ. الْحدائقُ قادمةٌ.

لا لاهِيَ إلاَّ الألمُ. أوجِزْنَ ما ستُنشِدْنَهُ في سهركنَّ الأفعوانِ للسفنِ. أناشيدُ من شحوب المضائقِ. مآزقُ. لا يسعدكُنَّ ما ليس مأزقاً. هوسُ الرحيلِ بالأبواقِ. البشرى البهيمية. تصحيفٌ تتوسّلن به خزْنَ الذخائر لحروب الأرواح. لا لاهٍ: الْمتاهُ المرساةُ، والموانئُ حَمْلةُ الألم على المرتدِّينَ عن الألم. شكٌّ هذا. شكٌّ ذاك. أنتنَّ القيدومُ العالقُ في القصبِ، بل إدمانُ النجومِ صريرَها؛ بل زُنابى الأعياد الهرِمةِ؛ بل المضْغُ المستعذَبُ من حشيشة الملاك. أوْجِزْنَ نجوى الكواكب من حولكنَّ. أوجِزْنَ نَقْدَ المنازلِ المنازلَ، والأقبيةِ الأقبيةَ، والحنينِ الحنينَ. صبابةٌ تتوسلْنَ بها السوسنَ اللازوردَ. بلغتُنَّ عُمرَ الأربعاء: سفنُكنَّ راسيةٌ في الموانئ. آباؤكنَّ على أرصفة الموانئ. هم هناك مذْ ولِدتُنَّ في الجهة اليمنى من الحياة. رسّامو الجروح المسترخيةِ شَبَعاً هناك. الأحوالُ، التي تلائم الحريقَ. جنيَّاتٌ يقايضنَ المعجزةَ بمربَّى السفرجلِ. سفنُكنَّ راسيةٌ. لن تستدرْنَ من السفن رضىً بنجاةِ الزبدِ. نُخالةُ الكون على أكتافكنَّ العاريةِ، وأمامكنَّ السلالُ الملأى مجازفاتٍ تُحْسَمُ بالقُبَلِ. سلالٌ بلا ذاكرةٍ. آلهةٌ ذابلةٌ في السلالِ. امتثالُ المهجور للمهجورِ. لن تستدرْنَ من الموانئ إلى آبائكنَّ

يعرِضون على الذهب عَرْضَهم القديمَ ذاتَه، مُنقَّحاً باستعارات الدَّاعرِ، وهم يجفِّفون بالمناديل الموحِلة عَرَقَ الغيبِ. ستلْمحنَ آباءكنَّ من السفن كلِّها، في الموانئ كلِّها. لا تستدرْنَ. لَكُنَّ عظةُ القوارير بأنصافٍ فارغةٍ، والصِّفرُ العلفُ في مذاود الرقمِ. لكُنَّ أن تستدرْنَ من الرقم إلى آبائكنَّ؛ أن تستدرْنَ إليهم من سخاءِ الأرقام، التي لها حلمُ المعارك، عابريْنَ، بوسائدهم فوق الأكتافِ، إلى خنادقِ اليأسِ ـ أبي الثقةِ كلِّها. هم لا يثقون بأنفسهم. لا يثقون بأحدٍ. أمورُهم معتدلةٌ في الشقاءِ الكليِّ. ترينَهم ـ آباءكنَّ كدماتٍ على أكتاف الأعمارِ. ترينَهم سُلاخةً من جِلْدِ حظوظكنَّ. صدِّقْنَهم: لا

خيبةَ

أقسى

من

الأملِ.

أغلقْنَ الليلَ عليهم بقُفلِ الماء. أربِكْنَهم بشرائعِ البقاءِ عَدَماً، وشرائع الكرز. لا مكانَ يتَّسع لآبائكنَّ. الْموانئ مزدحمةٌ بملاهي الزنبق؛ بكُنَّ تدحضْنَ مزاعمَ الزنبقِ دحْضَ الخيانة مزاعمَ الملحِ. لا مكانَ يتَّسع لاثنين. لا مكانَ يتَّسع للسفن متمايلةً، في مخادعكنَّ، على المياهِ النقوشِ. أتستدرْنَ من السفنِ، الآن، إلى آبائكنَّ؟. أطعمْنَهم شيئاً من كعكة المياه

الكبرى بنكهةِ المشيئةِ. أطعمْنَهم شيئاً من البندقة الأخيرةِ؛ شيئاً من أناةِ شجرة البندق الأخيرةِ. اتبعْنَهم بقُبَلٍ من بشارة الطينِ إلى نكباتٍ يحملها الأنبياء المحمومون. لكِنْ

لا

تنزلْنَ

من

سفنكنَّ

إلى

الموانئ.

حشودٌ على الأرصفة مصقولةً برذاذِ القَسَمِ في خريف الموانئ. أقحافٌ ملأى عسلاً. وصلَ العائدون من الحرائقِ ماشيْنَ بأقدام ألسنتهم إنشاداً لأشعار المُحْتَضَريْنَ لا تلتقطُها إلاَّ أسماعُ الموتى. وصل آباءُ المطابخ المنتحرةِ خيبةً. الْتَقِطْنَ أنفاسَكنَّ. الْتقِطْنَ المهجورَ بأنفاسكنَّ، متتبِّعاتٍ قلوبكنَّ إلى الصوابِ المُرْبِكِ. تكلَّمْنَ: للسنبلةِ

الواحدةِ

لسانُ

الحقولِ

كلِّها.

آباؤكنَّ الحشودُ على الأرصفةِ مصقولةً بالبهاءِ القَسَمِ في

خريف الموانئ. مرتبكون، قليلاً، من أدوارهم في الملهاةِ؛
مرتبكون من الملهاةِ لم يجدوا فيها إلاَّ أدواراً للمنتحرينَ. أنهارٌ
كثيرةٌ في جيوبهم تنتهي مصبَّاتُها إلى جيوبكنَّ الكبيرةِ.
جراحُهم، التي تخصُّكنَّ، معروضةٌ نظيفةً في أُصُصِ الورد
بأسماءٍ من أسماءِ الطيرِ. جيادٌ بلا حوافر تقودهم في العربات
إلى الموانئِ. ترينَهم بأيدٍ باردةٍ يزيحون الستائرَ عن نوافذ
العرباتِ. ترَيْنَ القبورَ محمولةً حقائبَ يتَّكئون عليها جلوساً.
صدِّقْنَهم: إنهم
يردِّدون،
رصيفاً
بعد
رصيفٍ،
ما
لا يصدِّقهُ
ثوبٌ. آباؤكنَّ شُرَّاحُ اللونِ للصورِ العمياءِ. آباءٌ
حشودٌ على الأرصفةِ مصقولةً بقَسَمِ الزيت في الخريف المفسِّرِ
قَسَمَ الزيتِ للموانئِ. المكانُ مرتبكٌ، يدير ظهرَه لآبائكنَّ.
الكواكبُ مرتجفةٌ برداً في الكلماتِ، والشروقُ متنكِّرٌ في قناعِ
المغيبِ. حشودٌ آباءٌ في الخريف صقيلاً بقَسَمِ الموانئِ.
لا تُسْقِطن الرمادَ، إنِ استدرتُنَّ إليهم، من لفافة التبغ المنطفئة

بين شفتيِ المعلومِ. انطفأت، الآنَ، لفافةُ التبغ الساخرةُ، وسقطت القبعاتُ ملأى بخيالها عن الرؤوس فارغةً تجوبُ الأرصفةَ المصقولةَ بقَسَمِ القُبَلِ أن تكون شيخوخةَ القُبَلِ. آباءٌ لا يقبِّلون امرأةً مُذْ قبَّلوا الغضبَ؛ مُذْ كانوا أكثر غضباً من موتى في الأسواق ينجزون صفقاتٍ مرايا. ساعاتٌ آنيَةٌ مقلوبةٌ على منضدةِ الوقتِ البائعِ ساعاتُهم. جراحُهم ودائعُ يستردُّها المُترَفون من المترَفينَ. جراحٌ أجراسٌ لجمع العائلة، بقَرْعها، إلى الموائدِ. جراحٌ تُحَفٌ تُقتنى؛ جراحٌ آنِيَةٌ تُقتنى. متسوِّقينَ ـ ترينهم ـ من الحوانيت الصقيلة العتبات متبَّلةً بزيت الخريف في الموانئِ ـ حوانيتِ المعاني، وهم يقطِّعون بأسنانهمِ الأزرارَ الكبيرةَ في معطف الحاضرِ. ذهبٌ مَدِيْنٌ للفضة بخياله، في الأيدي، على الأرصفةِ الصقيلة برذاذِ البكورةِ. طباعُ الأُخدود ظاهرةٌ على الأمراسِ؛ ظاهرةٌ ذائقةُ السفح الجبليِّ في سَفَاتيجِ البحرِ. صباحٌ أشعثُ كنبيذٍ؛ كآبائكنَّ أعاروا السيِّدَ التوتَ، الجوَّالَ، المبشِّرَ بشجرتهِ التائهةِ، نزقَ الموانيِ. توتٌ في الأفواه، على الأرصفةِ المتطبِّعةِ بتصحيفٍ في نقوشِ الأجران. كنانةُ الليل مثقوبةٌ، في الموانئ، تتساقط منها سهامُ النهارِ. آباؤكنَّ يُعيدون سهامَ النهار إلى كنانةِ الليل مبتلَّةً بأنفاسكنَّ. انْظُرْنَ من البعيد النازح، الملتجئ إلى كنفِ الكراكي، إلى الجهة الأخرى من خيالكُنَّ المنقسم على أرصفة الموانيِ. آباءٌ

هربٌ؛ عتابُ الخاموميليا الدافئُ في الأباريقِ، بل عَزْمُ القطيعة أن تستبدلَ خُدَّامَها. الآباءُ القطيعةُ آباؤكنَّ؛ السكونُ العَلَقةُ، ووجدانُ الفولِ. لن تجدْنَ باباً إلى قيامةٍ سوى النوافذ. استدرْنَ من نوافذ السفن إلى الطفولاتِ منزوعةَ الأظافر، ممسكةً، من وراء آبائكنَّ، بيَدِ الشحوبِ الأصل. ثومٌ في الراحاتِ، وفي الأعين قَطْرُ الصّوَرِ. الأرصفةُ مصقولةٌ بخيار الإنسان مذوَّباً زبدةً في حسائه الأول. أهراماتٌ ـ كلُّ حجرٍ فجيعةٌ. جَعَةٌ تُكرعُ قبل الهربِ. بروقٌ أزرارٌ على الفتوقِ في الثياب، فوق العاناتِ. الحروبُ كلُّها على أرصفة الموانئ. الحروبُ الشفاهُ، والقُبَلُ؛ الحروبُ اللَّمْسُ كشرابِ الأنيسون دافئاً بعد الشجار. عُدْنَ إلى البحر من المضائقِ. عُدْنَ إلى المرايا وأنتنَّ تسحَلْنَ فجرَ البحر من الأعالي إلى أخدود الشحاذينَ السَّحرةِ؛ إلى الوجود شاحباً يكمل سردَ عظاتهِ الناقصةِ. وتحدَّثْنَ عن الرؤيا الأنثى، والقيامة الأنثى، ككل امرأةٍ.

تحدَّثنَ عن قمرٍ من قطنٍ مبلولٍ بلعاب السماء، ككل امرأةٍ.

تحدَّثْنَّ عن الحلماتِ النَّحْلِ، والطُّرقِ تضمُّ الطرقَ إلى حريمها، ككل امرأةٍ.

تحدَّثن عمَّا لن يحسمه بياضُ الخرزةِ في العقدِ، ككلِ امرأةٍ.

تحدَّثنَ عن مناجاة الأقفال، وعُدَّة الليلِ، وآلاتهِ ـ آلات النسيانِ، ككل امرأةٍ.

تحدَّثن عن حروفٍ تؤذي جيرانَها الحروفَ؛
عن إعدامِ السُّحبِ؛
عن خنوعِ الزجاج؛
عن الصرخات الحَوْليَّةِ؛
عن حذر الزبد، وخيار الحصاةِ؛
عن أكداسٍ من العظمة في الصناديقِ؛
عن مقامِ مِعْوَلٍ يحفرُ في الجمرةِ لمقامٍ آخر؛
عن الصور الكفيفةِ؛
عن زحف الجوز، والشقاءِ المُحِبِّ؛
عن نزيف القلائدِ؛
عن أيامٍ نيئةٍ كالغضبِ؛
عن نمور في المزادِ؛
عن وَزْرَةِ المجهول البرتقالية؛
عن الحروب تتنازل سِلْماً للحروب عن بناتِها؛
عن شُرَّاحِ العظام الصغيرةِ؛
عن سقوط الصباح عن أسِرَّتكنَّ كلَّ صباحٍ؛
عن غِلمان الزبدِ، وحريم السحابِ؛
عن الزُّهدِ ـ أبي الشرفاتِ الضيّقةِ؛

عن زُحَلَ مربِّي الظلامِ في المزارع؛
عن عقيدةِ الشِّباك؛
عن البؤس المعلِّم صبيانَ الحقائقِ وأخواتِهم؛
عن العصيان مُعْلَناً في ساحات المطاحنِ؛
عن الربيع عارياً؛
عن قميص الصيف عالقاً بالسياج الشائك؛
عن صدوعٍ في العظامِ. تحدَّثنَ عن الآبارِ ـ صرخاتِكنَّ.
كلُّ شيء معكنَّ حتى خسارةِ كلِّ شيءٍ. خساراتٌ ممتعةٌ. أرباحٌ مؤلمةٌ. قُبَلكنَّ ـ أكِّدْنَها مواثيقَ: لا قُبلةَ هي ذاتُها مرتين. كلُّ مرَّةٍ مرَّةٌ. كلُّ كلٍّ يُحصى كطنين البعوضِ. لن تتحدَّثن إلاَّ كما تتحدَّثُ النساءُ. لكِنْ

لا

تحتفظْنَ

بمرآةٍ

خُطاطةُ القِدَمِ على صَفَنٍ. سماءٌ مقلِّدةٌ صراخَ البابون: الطعنةُ الأكثر إيلاماً طعنةٌ لا تقتل. هكذا هو العالم. هكذا

يمضي العالم: أنهارٌ في الجهة الأخرى من خيالكنَّ المنقسم على الضفاف الكبيرةِ. هكذا يمضي باتِّفاقٍ، أو عنوةً، إلى مصبَّات البرقِ. حائطٌ يمشي بحائطٍ إلى النهاية. صدوعٌ تحت الأعقاب، وعويلٌ في العظامِ. وسِّعْنَ المَخَارِجَ للأسلاب يزحف بها اليقينُ إلى مخابئ السماء الخلفيَّةِ. دِيْنٌ خلفيٌّ. قيامةٌ خلفيَّةٌ، وراءَ الحدائق الخلفيةِ. الخلفيُّ المفقودُ. الوجودُ الخلفيُّ ببابٍ بلا مقبضٍ. النوافذ الخلفيةُ. الكَسْرُ الخلفيُّ. الكلماتُ الخلفيةُ في معاني النجاة بسلالمها الخلفيةِ ـ سلالمِ الحريقِ. حلقةُ المفقودِ الخلفيةُ. الخلفيُّ المنقِذُ. الإثمُ الخلفيُّ في منزل الخير. الجروحُ الخلفيةُ بأوزانِ الألم الصغرى. الخلفيُّ النَّظمُ في الأشعار بعينٍ على مغانم الهربِ. الهربُ الخلفيُّ إلى ما يلي طُرقَ الحقائق الخلفيةِ. الخلفيُّون الحذَّاقُ في التمويه على البرازخِ. النساءُ الخلفياتُ أمام الأبواب الخلفية من منازل النساءِ. الخلفيُّ الأبُ ـ قرصانُ كلِّ أمامٍ. بدِّلْنَ

حدائقَكنَّ

الخلفيةَ

مخازنَ

للأشرعةِ.

ساوِمْنَ المُخْتَلَسَ. الثلوجُ مُحْتَجَزَةٌ في بياضها، والحروبُ تجمعُ أحذيةَ القتلى في كيسها السماويِّ: أكياسُكنَّ ـ أكياسُ

الأنيقِ المُلْغزِ تتَّسع لثياب الأطفال يؤخذون رهائنَ كي لايغدر الآباءُ بالآباءِ. ساوِمْنَ الهواءَ مُقْفَلاً بقُفلٍ أرقامٍ، ونبِّهْنَ الريحَ إلى تقصيرها. أَمْ تُراكُنَّ ساوَمتُنَّ الحصاةَ المرتعشةَ في قلبِ الخائفِ؟. سَلِّفْنَ المعانيَ جيوبكنَّ الصغيرةَ. سَلْفةٌ أَرَقٌ. سَلْفةٌ نهايةٌ. هناكَ. كلُّ شيءٍ هناك. الأَرَقُ الفَذُّ ـ السَّلْفةُ ككمالٍ، والدرهمُ المهترئُ في جيب عزازيلَ. الملوكُ، أبداً، يولدون مُرْهقيْنَ. مُرْهَقاتٍ تولدنَ بوساوسِ السمكة في حوضٍ مفتوحٍ، هناك، على الحافة البرتقالية، حيث تنتهي كلُّ رحلةٍ؛ على الحافة البرتقالية حيث ستقف الثيرانُ بأظلافها البرتقالية قبالةَ البحيرات.

برتقاليٌّ رُكنُ الذاكرةِ. الحرائقُ برتقاليةٌ في مرايا الكلماتِ. عُمَّالُ الماءِ يسيرون بأحمالِ الماءِ وأثاثه البرتقاليِّ إلى القاعات الكبرى، التي ستدخلْنَها بالأريافِ الأحصنةِ، وبالضواحي تتنفَّس خِصامَ السعداءِ وحروبَهم السعيدةَ. الْبحيراتُ ـ جيوبُكنَّ المسروقةُ ـ برتقاليةٌ. طعمُ تبغٍ برتقاليٌّ على لسان اللونِ. تقديمٌ برتقاليٌّ للساعةِ . تأخيرٌ برتقاليٌّ للساعةِ. أتأخَّرتُنَّ، جَرْياً على عادة الودائعِ، في الدعاء للسطر الموحشِ بدعاءٍ من كلمات السطر الموحش؟. زئيرٌ مُخلَّىً من الخوف قلوبُكنَّ. زَئيرٌ برتقاليٌّ. أتأخَّرتُنَّ، جرياً على عادة الجير العفيفِ، والحساب الداعر، في اعترافكنَّ بالموت كنجاةٍ؟. قايضْنَ أمراءَ البحرِ بإلهِ

البحر المُرْتَجَلِ إيماناً بالبرتقاليِّ. حاضرٌ يؤجَّل قليلاً حاضرُ البرتقالة. أجِّلْنَ إشراكَ الله في ما أسقطه الغاضبون من دراهم الحياةِ في طاساتكنَّ، جرياً على عادة الفجر مُحْسِناً إلى الفجر بالبرتقاليِّ. كلِّمْنَ أنفسَكنَّ، كما كلّمْتُنَّها قَبْلاً، في كلِّ صدعٍ. كلِّمْنَها في الشقوقِ البرتقالية؛ في المفقودِ الطلاءِ على شفتيِ المفقودِ، جرياً على عادة الرسومِ. اضْرِبْنَ صَفْحاً عن البرتقاليِّ ـ الليلِ القاصر؛ صَفْحاً عن كارثة الفوز بالجمرةِ الثانية. اضْرِبْنَ صَفْحاً عن ديوان البرتقاليِّ بغلافٍ لحمٍ، جرياً على عادتكنَّ متلذِّذاتٍ بمَكْر الجلال المُفرِّقِ. عدلٌ يمشي بحذاءٍ ذي عقبينِ لحمٍ إلى الحافة البرتقالية، حيث تقف الثيران بأظلافها البرتقالية قبالةَ البحيرات. خُذْنَ أشياءَ العدل، ومتاعَ العاصفةِ، في صناديقكنَّ الموشَّحةِ. سيأخذكنَّ البرتقاليُّ، من أيديكنَّ، إلى المديحِ المُنْتَحِبِ. اسْرِقْنَ ما في جيوب العدل. اسْرِقْنَ المزيَّفَ العادلَ. برتقاليٌّ ما تربحْنَه من رِدَّة الزبد عن دِينِ البحر، ومن لوثة الصعتر يابساً في لبن الخلائقِ. فريدٌ ممرَّغٌ في طحين الصّور ما تربحْنَهُ. الْحقائقُ تربحْنَها أذيالاً معقوفةً، وهريراً كهرير الكلب برتقاليّاً، مُذْ كنتُنَّ؛ مذْ كان الوجودُ متردِّداً في اعتناق دِينِ الحصاة النهريةِ. أخْرِجْنَ الوجودَ برتقاليّاً من قواريركنَّ يستلْقِ على المذابحِ ـ أسِرَّةِ المعقولِ المريحةِ. أَخْرِجْنَ الليلَ من قارورة الخلِّ برتقاليّاً. أنتنَّ مُذْ

أغضبتْكنَّ الغابةُ أغضبتُنَّ الغابةَ. الْبروقُ تُغدق عليكنَّ سمسمَها ناضجاً. بروقٌ برتقاليةٌ. اشكرْنَ حقلَ الزيتون شُكْرَ البرتقالةِ. لا يتأفَّف منكنَّ حقلُ الزيتون على صخبٍ. اشْكُرْنَ الخطأَ الدَّمثَ يقود الشعوبَ إلى انتصار خطئِها، على الحافة البرتقاليةِ. ستعثرْنَ، أبداً، على ما لا تُرِدْنَهُ. سيعثر عليكنَّ ما تُرِدْنَهُ مُنْتَهَكاً، كأنْ عليكنَّ أن تربحْنَ ما يخسرُه قلبٌ آخرُ؛ أن تخسرْنَ ما لن يربحه قلبٌ آخرُ مُستدرَجٌ، برتقاليّاً، إلى كآبةِ البياض وخيبةِ الزُّرقةِ. تأخرْتُنَّ جَرْياً على عادة البرتقاليِّ.

تأخَّرْتُنَّ

كالاثنين

يُحصي،

في

لهفهِ

الشامت،

خساراتِ

الثلاثاءِ.

تأخَّرتُنَّ مُذْ لم تتأخَّرن عن حسرةٍ ظليلةٍ في المكانِ الحسرةِ الظليلِ. واضحاتٌ أنتنَّ. واضحٌ ما انكسرَ في البرتقاليِّ. مزادٌ تعرضُ فيه الشهواتُ تماثيلها برتقاليةً أمام المحظوظين الجرحى. اعْرِضْنَ تماثيلكنَّ. اعْرضْنَ عطرَكنَّ خفيضَ الصوت

يهمس إليكنَّ ألاَّ تخرجْنَ إلى المَتاجرِ؛ عطرَكنَّ الواضحَ في ريبته من النهار لا يتبعكنَّ نهاراً إلى المتاجرِ. واضحاتٌ أنتنَّ في الكسور البرتقاليةِ، معتدلاتٌ كأرَقِ البرتقاليِّ، يخطر ببالكنَّ ما يخطر ببال الطُّرق جرياً على عادةِ الغريبِ ـ أملِ الغريبِ. تأخرْتُنَّ. واضحٌ هذا في الكلمات الصغيرة على لسان البرتقاليِّ. أسْكِتْنَ شكرَ البرتقاليِّ لطباعٍ لم تعتذرْنَ عنها إلى الوجود. فلْيسْكتِ الحريقُ، قليلاً، إذْ تتحدث قلوبُكنَّ عن جلال الحريقِ: سيرَتِهِ الصغرى ـ سيرةِ البرتقاليِّ مذْ أوكلَ الإنسانُ اللهَ بالخدعة هارباً من حصن الإنسانِ. تأخرْتُنَّ كأنكنَّ مماطلةُ المذابح في توضيح براعاتها، والأجسادِ في اعترافها أنها سخاءُ الهزيمةِ. أنتنَّ مَدِيناتٌ للبرتقاليِّ بجرحٍ لم يُحْسَم؛ بحقد الترابِ، بحقد المدافن الفارغةِ. شهواتُ النقائضِ مبتكرَةٌ، عُذْراً بعد عذرٍ، في أمل البرتقاليِّ. الْنقائضُ، مثلكنَّ، تعَضُّ على ملاعق البقاءِ الغاضبِ. لا تأبهْنَ لها. اشْرَبْنَ السماءَ، ثانيةً، من القدحِ المكسورِ. الكُسورُ كلُّها برتقاليةٌ. وسِّعْنَها الكسورَ. وسِّعْنَ الطُّرقَ إلى بيوتكنَّ نفْخاً من فم البرتقاليِّ على الساعاتِ. لقد جَرَحْتُنَّ كلِّ شيءٍ لأنكنَّ جُرِحْتُنَّ في كل شيءٍ. لن يدخل شيءٌ إلى البرتقاليِّ. لن يخرج شيءٌ من البرتقاليِّ، مُذْ أحكمتُنَّ الحصارَ عليه، على الحافةِ، حيث ستقف الثيرانُ بأظلافها البرتقالية قبالة البحيرات.

بأفواهٍ في قلوبكنَّ، وأيدٍ في النظراتِ؛ بأقدام المعاني المبتورة الأصابع؛ بالسيوفِ الرخوةِ كخوفِ آبَ؛ بالصقور تُصَادُ بها فراخُ التعب؛ بهذا المهدور في ذاكَ؛ بذاكَ المهدورِ؛ بالثواني الألسنةِ متمرِّغةً في تراب الساعاتِ جوعاً، ستنقذنَ حزنَ المجدِ من إقدامه على خذلان المجدِ. أنتُنَّ، يا اللواتي تأكلُنَ عضّاً، وتؤكلْنَ عضّاً، تتسوَّقنَ الفصولَ بأسعارٍ مُخْتَفَضةٍ من باعة الغضب الجوّالينَ، وتتسوَّقنَ الحياةَ مراهمَ من حوانيتِ الصيفِ. أأنجزتنَّ حصارَ البرتقاليِّ؟. مجدٌ بلا مَخْرَجٍ على حافةِ البرتقاليِّ. لا تتراجعنَ عن الحافة الجائعةِ: ظلٌّ

جائعٌ

ظلُّ

الشجرةِ

العارية.

لا تتراجعْنَ. قايضْنَ خيالَكنَّ بحساءٍ بارد على الحافةِ؛ بنشيد القوَّاديْنَ للأمل الداعرِ. طباعكنَّ أيائلُ في الجليد. خيالكنَّ من أنفاس الثيران بأظلافٍ برتقاليَّةٍ على الحافةِ، قبالةَ البحيرات. إنْ قُتِلتُنَّ تُقْتَلْنَ مرّتين. رفِّهْنَ كلَّ قتلٍ. كُنَّ حسوداتٍ كالبأسِ. لكِنْ

لا

تتراجعْنَ

عن

حافةٍ.

أصلحتُنَّ ثياباً كثيرةً، وأحذيةً كثيرةً. أصلحتُنَّ المُمزَّقَ بخيوطٍ من غضبِ الموحشِ الممزَّقِ، فلا تعتذرْنَ إلى أحدٍ عمَّا ضيَّعتُنَّ من ودائع الخبَّازين وأحفادهم. لن تعتذرْنَ عن هَمِّ الطحين وغمِّ المعجنِ. مهمَّاتكُنّ لا تتذكَّرُ آلهةً. جوعٌ يستعطفكنَّ زادَهُ الجديدَ من الجوعِ. لا تتراجعْنَ: للقلوب زئيرٌ مرفَّهٌ؛ زئيرٌ لايخيفُ. للأحمرِ زئيرٌ. لا تتراجعْنَ: الأحمرُ يجفِّف عن جباهكنَّ، بمنديل الماءِ القوَّادِ، عَرَقَ الإله المرتدِّ عن مهمَّتهِ.

خِذلانٌ حقيقٌ بفوزه في شرب الأنخاب على باب القيامة خِذْلانُكنَّ. أتعتقدن أنكنَّ أسرفتُنَّ في شيءٍ مُذْ لا يعتقد شيءٌ أنكنَّ أسرفتُنَّ فيه؟. تشمَّمْنَ الزبدةَ متشبِّثةً بنَفَسِ النار في كعكتكنَّ الذهبيةِ. الأعالي طلاءُ أظافركنَّ، فلا تُقايضْنَ الكهوفَ بعمقِ صرخةٍ. كهوفُ الأبديِّ عميقةٌ عمقَ صرخةٍ؛ عميقةٌ عمقَ القاتِ. امْضغْنَ بعضَهُ. القاتُ الشَّرْعُ ـ أمانةُ الفردوس المقامر بالملائكة يخسرُهم سرْباً سرباً حتى النهايةِ. امْضغْنَ صرخةَ الذَّكرِ كَتَأْنبوْلٍ، وراء أبواب مَخادعكنَّ مفتوحةً على مَخادعِ الكلماتِ. وسائدُ أَدبٌ في المخادعِ هناك: أدبُ

السطر منحنياً بالكلمات للمعاني. أدبُ السطر منحنياً بالمعاني للكلماتِ. لأَنْتنَ تصدِّقنَ ما تزعم النساءُ للنساءِ أنهنَّ صرخةُ الذَّكَر في حقول العدسِ، والكُشتبانُ في بِنْصِرِ المعجزةِ. لأَنتنَّ لا تثقْنَ بخطواتكنَّ الأولى، بل بالثانيةِ؛ لا تثِقْنَ بالصيفِ. تتكلَّمنَ، إذْ تتكلمن، براحاتكنَّ على الأردافِ، يا شتائمَ البلابلِ. أكلَّما هربتِ البحيراتُ هربتُنَّ مع البحيراتِ؟. تُتمِّمْنَ المعجزةَ الحساءَ الباردَ غَمْساً فيه بالخبز مرتعداً حرقْةً. وشومٌ على أصابع أقدامكنَّ اليسرى ـ وشومٌ نمورٌ. لا تتراجعن: عُمَّالُكنَّ يترفعون عن التقاط الصواعقِ ـ العرانِيسِ لعشاء الآلهةِ. لا تتراجعنَ. الأسواقُ مفتوحةٌ ـ أسواقُ الفجاءةِ مفكَّكةً كأحشاء الساعةِ. والأسبابُ ـ ترينَهَا ـ نائمةً، أبداً، عند مداخل الأسواق ومخارجها. لا تتراجعْنَ. ستسمعْنَ سقوطَ حبَّة الحِمَّصِ من فم الكمال على ثديٍ. ستسمعْنَ العدلَ أنه لا يتذكر الوجودَ إلاَّ حافياً. لا تتراجعْنَ عن الحافةِ. هرطقاتُ المجاذيفِ، في القوارب، لا تثنيها عن يقينٍ. بلا يقينٍ، أو به، تعرف الحافةُ أنكنَّ لن تتراجعْنَ: الْثيرانُ

ستقف

بأظلافها

البرتقاليةِ،

أخيراً،

قبالةَ

البحيرات.

ليست القلوبُ، المتأنِّقةُ في عَدْلِها، على ما يرام.

لا مكانَ على ما يرام.

لا اعتذارَ على ما يرام.

لا نصْرَ على ما يرام.

الْجروحُ الكَرَمُ؛ الألمُ الكَرَمُ، ليسا على ما يرام.

نعمةُ المكان المهجور ليست على ما يرام.

لستُنَّ على ما يرام، إذْ تشكرن شجرات البتولا، طويلاً، على اعتنائها بخسارات الحَوَرِ الرجراج. ما يُرام ليس على ما يرام، فلا تتراجعْنَ. أكمِلْنَ وثباتِكنَّ من القديم إلى القديم بقلوبٍ أقدامٍ. جروحُكنَّ صريفُ البوّاباتِ. أرَقُكنَّ الزوايا في حجرات الحصنِ على الحافةِ. لا تتراجعْنَ. لستنَّ على ما يرام. لا تتراجعْنَ. هادئاتٌ أنتنَّ مذْ قَنعْتُنَّ بالوحشةِ طباعاً، متلبِّساتٌ بالجُرمِ ذاتهِ نساءً جرزْنَ الحياةَ إلى السماءِ اللقيطةِ بآلهتها اللقيطةِ، وشعوبها شعوبِ الوجودِ اللقيط. أكياسُ

الشفق المحترقةُ أنصافُها على أكتافكنَّ تتسوَّقْنَ بها دخانَ الأمومة المحترقةِ. أغْرِقْنَ الطُّرقَ في مغاطس حمَّاماتكنَّ، واسْكُبْنَ فجرَكنَّ الحليبَ في أقداح الغَرَقِ. لا تتراجعْنَ. تنكَّرْنَ للصباح يتنكَّر لما قاله لصباحٍ آخر، وجذِّفْنَ بالمجاذيف الطين خوضاً بزورقكنَّ الأثرَ في الساعاتِ. الكهوفُ ـ المَلَكاتُ السفلى على حافة البرتقاليِّ. عمقُها عمقُ صرخةٍ لم تسدِّدْنَها، بعدُ، من حناجر الأرخبيلاتِ إلى القلبِ الماءِ. زوجاتُ آبائكنَّ صغيراتٌ. أزواجُ أمهاتكنَّ مغلوبون على أمرِ أعمارهم. لا تتراجعنَ عن نسيانٍ ملأتُنَّ به حمّالاتِ ثُديِّكنَّ المنشورةَ على حبْلِ الغيب. لا تتراجعْنَ عن نسيانٍ مُقَطَّعٍ بمقصِّ آبائكنَّ خُمُراً للأمهاتِ. سكاكينُ نظيفةٌ تُعْرَضُ، خَطْفاً، بشفراتها على أبصاركنَّ النسيانِ كي تقطعْنَ بها شؤونكنَّ رقائقَ مستطيلةً كالوقتِ. حروبٌ من مَرَح الأضاليا. حروبٌ سراديبُ الأعشار المتقاطعةِ. لا تتراجعْنَ عن حافة الشكل الستةِ الأزرار في صُدرةِ الحيِّ. فجرُكنَّ مقضومُ الحافة. ظهيرتُكنَّ الصحن على حوافه أثرُ الأسنانِ. كلُّ شيءٍ حافةٌ على حافة البرتقاليِّ، حيث

ستقف

الثيرانُ

بأظلافٍ

برتقاليةٍ

قبالةَ

البحيرات.

قبالة البحيرات، هناك، لا يُمتَحَنُ شوقٌ امتحنْتُنَّهُ. هناك لا تَخرجْنَ من غامضٍ إنْ دخلتُنَّهُ، ولا تدخلْنَ، ثانيةً، في غامضٍ إنْ خرجتُنَّ. الحاضرُ يُسأَلُ كأبيهِ الغائبِ؛ معالـمُ الممكن واضحةٌ في قفزات الفهد، قبالة البحيرات. خصورٌ ممتلئةٌ لحماً خصورُ النساء هناك. أردافٌ ممتلئةٌ. لا عروقَ ترى في الأيدي. هُنَّ ـ أنتنَّ العاشقاتُ أتمَمْنَ أسْرَ الفضةِ، وملَّكْنَ الحروبَ طلاءَ أظافرهنَّ في حُقَقٍ من طنينِ النَّحْل. خبزٌ بلا نِشاءٍ خبزُ العاشقات هناك. جمالٌ بلا نشاءٍ. سراويلُ واسعةٌ من أسفلَ. قلوبٌ واسعةٌ من الفوَّهاتِ. سُتراتٌ منسيَّةٌ على مقاعد الجرح ستراتُكنَّ العاشقةُ. ألَقٌ واحدٌ لا يتغيّر هناك: ثراءُ الفقرِ على الحافة البرتقاليَّةِ. السهمُ الرخوُ سهمُ العضلة الرخوة في ذراع الحياةِ يعبر الحافة مائلاً. قلوبٌ ضيِّقةٌ. وعودٌ أكثرُ ضيْقاً. أذيالُ عباءات تمَسُّ الأرواحَ كلَّها. طحينُ الموتى في المعجن البرتقاليِّ، على الحافةِ البرتقاليةِ. عشاءٌ

طويلٌ

على

شرفِ

القتلِ.

لا تتراجعْنَ: أسيادٌ مغتَصَبون. مهانونَ لا يذكِّرون أحداً بالأنهار. أأَثَرْتُنَّ، من هناك، نزاعَ الأوديةِ؟. تتشكَّكْنَ في نقاءِ الأربعاءات من كل صيفٍ. تتشكَّكْنَ في الظلالِ على الحافةِ.

لكِنْ

ما يُخبَّأُ

في

الأحذيةِ

يُخبِّأُ

في

العظامِ.

هناك، العظامُ على الحافةِ كخيارِ مِبْخَرةٍ في يد الضريرِ. العظامُ العزلةُ ـ ولايةُ الدمِ. لا تغادِرْنَ الحافةَ. سترْجِعنَ إلى الوقت بخُدعةِ الوقتِ. طلاءٌ خفيفٌ على أهدابكنَّ. طلاءٌ على الجفونِ. طلاءٌ على الأظافرِ. رعودٌ طلاءٌ على الأظافرِ. بروقٌ طلاءٌ. لا يقف مكانٌ في طريقكنَّ ـ أنتنَّ المكانُ العقابُ الساخرُ. ولا تَنَمْنَ إلاَّ شوقاً إلى تعبٍ. صمتكنَّ مغسولٌ يردِّده، في همسٍ، صخبٌ مغسولٌ. أمهاتُ السطورُ مغسولةً في الكتاب المغسولِ. أجزائرُكنَّ، هذه، طافيةٌ بعد غرقٍ

الفصولِ؟. كلّما ارتفع صوتٌ على جزائركنَّ ارتفع صوتٌ آخرُ، وانخفض، مراراً، في مراياكنَّ المنقسِمةِ على جهتَيْ كلِّ صوتٍ. ضربةٌ من حافر الزَّرافِ ـ صدىً يردِّدكُنَّ، خافتاً، في الذهبِ؛ خافتاً في حُجرة الملاك الملحدِ. أخواتُ الحيرةِ النهايةِ أنتنَّ. أخواتُ كل شيءٍ؛ بناتُ كل شيءٍ، وأُمهاتُه، اللواتي أجَّلْنَ أمومتهنَّ إلى موعدِ الحيرةِ النهايةِ. ما يُخبَّأُ

في

جرحٍ

يُخبَّأُ

في

الجمالِ الأشدِّ فتنةً، خلف الصخرة القريبةِ. ها ما يُلهمكنَّ نزهةً في المضائقِ الطينِ. ها الوحيُ، الذي كوَحيِ الصِّقالات في الكهوف العالية، يصعدها النحاتون بولائهم للحجرِ. ها

غبارٌ

يثيرُهُ

كثيفاً

سقوطُ

قلبٍ

واحد.

شرفُ الزيتِ ملتمعٌ على خبزكنَّ صباحاً ـ خبز الذهب الضحى، والفضَّةِ الفجرِ. عَلَفٌ كثيرٌ يكفي الخرافَ كلَّها في الحظائر البرتقاليةِ على حافةِ البرتقاليِّ. ضفدعٌ جريحٌ في كلِّ نهرٍ من مصبّاتكنَّ. دعاميصُ معجزةٍ تلتهمها الأسماكُ. إنها شمائلُ كشمائل الهلعِ الرقيقةِ: ها هيَّأتنَّ الأظلافَ السماويةَ أقداحاً لشرابكنَّ على الحافة، وبشَّرتُنَّ بالقلوبِ كلِّها: قلوبٌ بساتينُ؛ منعطفاتٌ في الطُّرقِ الحصى؛ حقائبُ ضائعةٌ؛ ملاعقُ؛ بزورٌ. قلوبٌ منحدَراتٌ؛ مخابئُ؛ ساعاتٌ من ثوانٍ كلبيَّةٍ؛ عزْفُ شحاذينَ في أنفاق العوالم. قلوبٌ ظهيراتٌ؛ صكوكٌ مؤجَّلةٌ؛ ديونٌ؛ معسكراتٌ؛ مقابضُ أبوابٍ؛ جيوبٌ؛ أشرعةٌ؛ غداءٌ جلوساً على الأرضِ. قلوبٌ زياراتٌ بلا موعدٍ؛ طهوٌ؛ قرعٌ على النوافذ؛ أسوارٌ صغيرةٌ؛ نعاسٌ؛ حمَّاماتٌ. قلوبٌ شروخٌ في العظامِ؛ ممرَّاتٌ؛ زواحفُ؛ لجوءٌ إلى النار متطوِّعةً لاعترافِ خمودها. قلوبٌ جهاتٌ متخلِّعةٌ؛ أعقابٌ؛ حدقاتٌ بلا لونٍ؛ علكةٌ؛ قضمُ أظافرَ؛ شُقرةٌ من صباغ الحمَّى. قلوبٌ مدافئُ يتسرَّبُ منها دخانُ الحظوظِ؛ كسورٌ عشريَّةٌ؛ صمغٌ؛ زحامٌ؛ مقاعدُ. قلوبٌ أذيالٌ قصيرةٌ؛ موانئُ؛ أحواضٌ على سفوحٍ. قلوبٌ ضيِّقةٌ؛ زعانفُ رماديةٌ؛ رسائل لم تُغلقْ غُلُفُها؛ علفٌ في المذاودِ؛ حَلْجٌ؛ عقودٌ بأختامٍ لا حروفَ في حبرها؛ هياكلُ عماراتٍ. قلوبٌ حصادٌ في السفنِ؛ مراصدُ؛

صفقاتٌ؛ أرْسانٌ؛ أحاديثُ قبل النومِ. قلوبٌ أُجورٌ. قلوبٌ قروضٌ؛ أطوافٌ في مياهٍ ضحلةٍ؛ وساطاتٌ؛ مغادرةٌ؛ أثاثٌ؛ نواجذُ. قلوبٌ رِبَاً؛ وقتٌ خطأٌ؛ مكانٌ خطأٌ؛ معاقلُ منسيَّةٌ؛ طُعْمٌ؛ أرصفةٌ منحَدِرةٌ. قلوبٌ أرصفةٌ لم تُكْتَمل؛ سباقاتٌ؛ وعودُ اللحظةِ الأخيرةِ؛ ستائرُ لمْ تُسْدَلْ جيداً؛ شعاعاتٌ منعكسةٌ في ماءٍ. قلوبٌ غَرَقٌ؛ زنازينُ بلا حَرَسٍ؛ قدور على نارٍ هادئةٍ؛ كمائنُ مكشوفةٌ؛ مكانسُ؛ أقدامٌ للهربِ. قلوبٌ سهولٌ؛ صدىً؛ ولائمُ؛ رسومٌ على الأظافرِ؛ سَجْعٌ؛ أسواقٌ؛ طلاءُ شفاهٍ؛ ظلالٌ شعثاءُ. قلوبٌ شَعْرٌ لم يُمشَّطْ بعدُ؛ طقطقاتُ أعقابٍ في الأقبيةِ؛ شتائمُ مُتْقَنَةٌ؛ زُقاءُ دِيَكةٍ لم تُسَافِدْ. قلوبٌ رِشىً؛ وثائقُ؛ عَشاءٌ؛ حدائقُ خلفيَّةٌ؛ أسلاكٌ؛ مجاذيفُ؛ أمراسُ مراكبَ؛ سلالمُ من زفير المراكبِ. قلوبٌ أنوالٌ؛ مَخَادعُ؛ أنخابٌ يتبادلها الحُسَّادُ جلوساً على جهات المدافنِ؛ مناظيرُ؛ خطفٌ؛ سطورٌ ممحوَّةٌ كلماتها الأولى؛ أباريقُ؛ استغاباتٌ؛ مساندُ الأرائكِ الواطئةِ. قلوبٌ زوايا؛ معاجنُ؛ هدناتٌ تعقبها هدناتٌ؛ قوافلُ متَّجهةٌ إلى لامكانٍ.

قلوبٌ
عضٌّ.

شرفُ الزيت يلتمع على قلوبكنَّ بعافية الصباحِ الزيت.
شرفُ الأفرانِ يلتمع على خبزكنَّ. هيِّئْنَ أقداحاً من أظلاف
الثيران لشرابكنَّ على الحافة البرتقالية. عَدْلُ قلوبكنَّ كعَدْلِ
الحلوى. عدلُ عتبكنَّ كعدلِ النسيانِ. عدلُ خروجكنَّ من
النقوشِ الخزفِ، بلا توضيحٍ، كعدلِ الملحِ. هيِّئنَ المُوْجِعَ
لعبوركنَّ الخاطفِ، الموجِعِ. مكوثكنَّ موجِعٌ. لكِنْ

لا

تحتفظْنَ

بمغيبٍ

في

جيوبكنَّ

الكبيرةِ.

عوالمُ زبدةٌ على لسان الوصفِ إنْ وصفتُنَّ، والوعودُ
محفوظةٌ مذْ أقسمَ اللهُ بالطينِ. أأقسمتُنَّ، مثله، بالأَرَقِ
معافىً، نقيّاً، على ما يرامُ؟. الْمغيبُ منكَّسٌ. لا تحتفظْنَ
بمغيبٍ في جيوبكنَّ الصغيرةِ. الأُمهاتُ أنتنَّ، اللواتي يأكلن
الحدائقَ الصغيرة في الثرثرات، ويتوعَّدْنَ الجمالَ أن يأكلْنَ
الحدائقَ الكبيرةَ إذا اقتضى الأمرُ. الْحقيقيُّ تختلِسْنَهُ، بأناملَ
زئبقٍ، من كل جيبٍ. جيوبكنَّ جيوبُ الوعودِ محفوظةً مذْ

أقسَمَ اللهُ بالطين أنْ تُكْمِلْنَ عقابَ الأحياءِ حفراً على جلود
الموتى. لا كَرَمَ كالصرخةِ. احتفظْنَ

في

كلِّ

سلامٍ

بصرخةٍ. سلامٌ نومٌ على نهايات
السطورِ. نِمْنَ، إن أردتُنَّ، على نهايات السطورِ. عذابُ
الماءِ؛ عذابُ المائيِّ على الحافةِ. جلودٌ أصفانٌ تسعةٌ تكفي
لتدوين سِيرَةِ البرتقاليِّ. جِلدٌ واحدٌ لتدوين رسالةٍ، بحبر
الشكِّ، إلى الحياةِ. دوِّنَّ هذا، أو ذاك، لا بحروفٍ، بَل
بقياس السخاءِ الدليلِ. الْتماثيلُ متذمّرةٌ على الحافةِ،
والمجزرةُ، بتوقيتها العادلِ، متذمرةٌ تسترسلْنَ في رسمها رَكْلاً
لوناً بعد ركْلٍ لونٍ، على لوحِ الغسقِ. دائرياً يقاسُ الغسقُ.
دائريًّا يُقاس الضجرُ على الحافةِ. دائريّاً يقاس أَرَقُ الصوتِ
الشاهد على المَقْتلةِ. دائرياً تُقاس المعاني على الحافةِ
البرتقاليةِ. شرفُ قلوبكنَّ شرفُ الثعلبان في وثبتهِ من بخار
القدور على الحافة. انْظرْنَ أسفلَ، من الحافةِ، لكِنْ

لا

تُخرِجْنَ

أحداً

من

حُفرةِ

يقينهِ.

الْقلبُ المبعوجُ، الأبلقُ، في الإناء على المائدةِ ـ القلبُ الظنونُ بأسنانٍ جديدةٍ؛ قلبُ كلِّ شيءٍ: هو ذا. لا تنظرْنَ

أسفلَ،

من

الحافة

إلى

القلبِ

ذاكَ.

ستصدِّقنَ كلَّ شيءٍ ـ الْقلبَ الذي كلُّ شيءٍ. ألمُكنَّ لن يُحتَمَلَ إلاَّ أن تُصدِّقْنَ في كلِّ شيء كذبةً، يا اللواتي يُصدِّقنَ فيحبلْنَ من همس الثمرة في شجرة التوتِ؛ يحبلْنَ بتوائم من عبور السنونو حقلَ الهليون؛ يحبلْنَ في الصباح بأجنّةٍ تحلم بهم الظهيرةُ؛ يحبلْنَ في الظهيرةِ بأجنَّةٍ يهيِّئهُم الليلُ للغدرِ بسلالاتِ الصباحِ. أنتنَّ، بجيوبكنَّ الواسعة الفارغة: ذلك ما تُجادِلْنَ فيه آلهاتِ الثيابِ. خطوةٌ واسعةٌ، على الحافة، خطوةُ البرتقاليِّ. وسِّعْنَ خطواتكُنَّ، أنتنَّ اللواتي تُطعِمْنَ الذهبَ شهيقَ الغريبِ، ويُطعمُكنَّ الذهبُ زفيرَ الغريبِ.

وسِّعْنَها الخطواتِ إلى الأكواخ فوقَ جداول البرتقاليِّ، الآن.
ساعاتُكنَّ متلعثمةٌ في تعريفِ الدقائقِ. جيوبكنَّ الكبيرة ملأى
بريشِ كرواناتٍ؛ بشظايا حظوظكنَّ البرتقاليةِ. تذكَّرْنَ أن
تتزوَّجنَ في الغَرَقِ؛ أن تنجبْنَ في الغرقِ، إذْ تغادرْنَ حافةَ
البرتقاليِّ من الممرات الضيقة إلى أبهاء المصائرِ. تغادرْنَ، أبداً
من الممرات الضيقة، بأقدامٍ مُهتصَرَةٍ في الأحذية الضيقةِ.
وتتنصَّتْنَ، طويلاً، إلى نباحِ الكلابِ في أرجاءِ الرؤيا. كلابٌ
مرحةٌ في أروقة النجومِ ـ كلابُ البُعدِ الأعمى، بنباحٍ من
حناجر البرتقاليِّ الخمس؛ البرتقاليِّ

الأمينِ

للمُنْحَدَرِ

إلى

الأربعاء.

تغادرْنَ، أبداً، من الممرات الضيقة إلى الأربعاءِ، وراء
المغيبِ التابعِ ـ الذاكرةِ المجتهدة في التَّصحيفِ. جاورتُنَّ
الحروبَ، التي أقامت خطأً، معكنَّ، في العافيةِ، تحت
الكواكب المتسوِّلةِ حظوظَ الفَلَكِ. بلغتُنَّ عمرَ المغيبِ،
المتسوِّل، الجوَّالِ على أبواب السرمديات البرتقاليةِ. بلغتُنَّ
عمرَ الأربعاء، يا طريحاتِ العافيةِ. بلغتُنَّ المفتوحَ على مُغْلَقٍ.
بلغتُنَّ المُغْلَقَ على مفتوحٍ، بأقدامكنَّ الصغيرةِ أقدامِ الكتب

الصغيرة، من الطُّرقِ ذاتها، المسلوخةِ كجلودٍ. سقوفٌ مسروقةٌ تُظِلُّ الممرات الضيقة إلى الأربعاء. سرَقتُنَّها السقوفَ، والمنائرَ ـ أثرَ التائهِ. تتذكرْنها، تتذكرْنَ ما سرقتُنَّ من حروب الحلوى: لن يعود أحدٌ من حروب الحلوى. وتتأوَّهْنَ إذ تتذكرْنَ صَفْحَ الجمالِ عن المذابحِ. قلوبٌ شائكةٌ وراء السياج الشائك ـ كلمتُنَّ قلوبَكنَّ عنها بارتباكٍ كارتباكِ الحذاء الأيسر في القدم اليمنى للعاشق. كلمتُنَّ الأربعاءَ قبل غياب الفجرِ؛ قبل بزوغ المغيبِ. أسخرتُنَّ كفايةً من قَدم السَّكينة في الحذاء الضيقِ ـ الحذاء الأيمن في القدم اليسرى للعاشق؟. سخرتُنَّ كفايةً من الأسلافِ المُخْتَصَريْنَ؛ من البيارقِ مقصوصةَ الحواشي؛ من الرقباءِ على الجذورِ يُسمِعونها ريبةَ الحرائق؛ من البركانِ الثناءِ على قَسَمِ النار بكُنَّ، مُذْ أقسمتُنَّ أنكنَّ ثناءُ كل شيءٍ على حريقهِ. مجدٌ لا يُغْتَفر؛ عذوبةٌ لا تُغتَفَرُ في السراديب التي لَكُنَّ. الْسراديبُ كلُّها سراديبكنَّ. الْنوافيرُ في كل بهوٍ نوافيركنَّ. المساكنُ كلُّها؛ المداخنُ؛ المكاشَفاتُ؛ الحافاتُ؛ المجاذيفُ كلُّها مجاذيفكنَّ، وتعتقدْنَ أنكنَّ سخرتُنَّ كفايةً من حيرةِ الماس، ومن حيرةِ الشعاع المنكمش على ورقة الكزبرةِ. سخرياتُكنَّ موثَّقةٌ في القطرات الأولى من مطر الخريفِ، وتعرفْنَ ما لا يحدث في مكانٍ آخر. ليكُنْ. لم تخيِّبْنَ السِّحرَ، والشكلَ، والبراثنَ، والماءَ، والأعالي الطريدةَ.

لا حياةَ تَتَّسعُكنَّ. أنتنَّ في الحياةِ بأقدامٍ تتدلى خارجَ الحياة. مفتوحةٌ لكُنَّ البواباتُ الخاملةُ بلا عنادٍ، والقلوبُ الستائرُ على نوافذ البحر ـ القلوبُ النظرةُ من عين الماءِ على الأعماق المسحورةِ. أنتنَّ هنا كالمغيب الذي هناك، وتفعَلْنَ ما لا تفعله ورقةُ الليمون. أَمْ تفعلْنَ ما تفعله أغاني المنعطفات المُقْفَلةِ، خلف بساتين الليمون؟. في أيديكنَّ البرتقالةُ المقشَّرةُ ـ برتقالةُ الظلام العذَّاءِ. أَصْغيْنَ إلى عزف البرتقاليِّ على كمانِ البرتقاليِّ الثالوثِ. أَمْ تُصغيْنَ إلى البرتقاليِّ جيئةً وذهوباً، على حبال البهلوانات فوق المضائق البرتقاليةِ؟. رتِّبْنَ كلَّ شيء ترتيبَ الماء للماء قبل خروجكنَّ من السُّكَّرِ، بالخناجر ذاتِها، إلى المراقي الخمسة في مُعْتَقَدِ السُّكَّرِ. رتِّبْنَ العوالمَ أقلاماً رصاصاً، متجاورةً كأقدام الحرِيش على الورقة لم يكتمل بياضُها. رتِّبْنَ العقلَ ستّاً ثغراتٍ، ستّاً نُدوباً، ستَّةً ثُديّاً، ستةً خدوشاً على قدمي الأمِّ المستعجلةِ إنكارَ أمومتها. رتِّبْنَ الممكنَ كلَّه صفيحةً فوق صفيحةٍ: لم تُخيِّبْنَ الله؛ لم تُخيِّبْنَ المُشكل؛ لم تُخيِّبْنَ الخيبةَ الأزليةَ. تتفهَّمْنَ أنكنَّ لستُنَّ أَرَقَ أحدٍ، أو خيبةَ أحدٍ، أو زفيرَ أحدٍ، أو لفْتَةَ أحدٍ، في الصباحِ، إلى التماثيل مرتعشةً قَلَقاً في الساحاتِ. ربحتُنَّ قليلاً. خسرتُنَّ ما ربحتُنَّ قليلاً: تلك آيةُ المرح في الخنادقِ. لكنَّكُنَّ على ما يرام مُذْ خدعتُنَّ أقدارَكنَّ، التي على ما يرام.

تتبع

السفنَ

إلى

النهاية .

الكُرومُ الهبةُ من الغَرَقِ إلى الغرقى؛

المراقي الخمسةُ إلى رئتيِ التنين؛

نعيمُ اللاتوازنِ الحقِّ، والمكعَّباتُ الذئبيةُ: أعقابُكنَّ هذه على الرملِ ذي الزئيرِ الخافتِ؛ أعقابٌ متشقِّقةٌ من تجوالَها في أزقَّةِ القدسيِّ. خدوشٌ من مخالب الهمس على معاصمكنَّ. أَتتعثَّرْنَ بالهمسِ؟. سماءٌ تتعثَّر بحواشي العباءاتِ عبوراً إلى مخازن الطبولِ، المُرمَّمةِ برقاعٍ من جلْدِ الإنسانِ. لا تتعثَّرْنَ

بالهمسِ مُلقيَ فُتاتاً للصقورِ في القبابِ الرملِ. اجْلسْنَ حيث يسعُكنَّ أن تجلسْنَ: على حافة الليل مُدلّياتٍ أقدامَكنَّ في جدول الماءِ، أسفَلَ، قربَ كلِّ خيالٍ. أَمْ جلستُنَّ حيث يسَعُ البُعْدَ القِدْرَ على نارٍ من العظامِ؟. ستُشعلْنَ لِفافاتِ تبغٍ لا تحترق، وسترميْنَ بأعقابها الطويلة، إذْ ترميْنَ بها، على أرصفة الحقائقِ. ستخدشْنَ الصّورَ بأظافركنَّ كي يسيل بياضُها إلى خيالكنَّ حليباً. وسيسعدكنَّ أن تحملن الحقائبَ فارغةً من رحيلٍ إلى رحيلٍ. مزِّقْنَ، إذاً، ما يُعرِّفُكنَّ مُذْ آثرتُنَّ أن تُعَرَّفْنَ كشتاتٍ في المعقول.

تملأنَ قواريرَكنَّ من معاصر النيازك زيتاً، يا اللواتي تكفيكنَّ حديقةٌ واحدةٌ على حافة الكلماتِ. تكفيكنَّ شُرفةٌ من نهاية الكلماتِ على الكلماتِ. تكفيكنَّ نقْرةٌ من أَنمُلةِ النبوءة على نوافذ مخادعكنَّ. يكفيكنَّ الشكلُ بلا صخبٍ. يكفيكنَّ الحاضرُ، الذي لا يتراجع. يكفيكنَّ أنكُنَّ

كنتُنَّ،

أبداً،

على

حافة

كلِّ

شيءٍ.

يكفيكنَّ أنكنَّ جميلاتٌ كعتبٍ؛ كرقصةٍ ناقصةٍ؛ كفراق بعد لقاءٍ لامُحْتَمَلٍ؛ كقُفلٍ رقميٍّ؛ كنهايةٍ لا يتوقَّعها المذعور؛ كمسكنٍ مستأجَرٍ بلا عقدٍ؛ كنزاعٍ لا ينتهي؛ كضجر الحكمةِ من مريديها؛ كسباقٍ في أوَّله؛ كعجينٍ مُقطَّعٍ كُراتٍ على مصطبة الفرَّانِ؛ كنزقِ الفلفل الأسود؛ كإغلاقٍ حَذِرٍ للباب؛ كأيدٍ في القفازاتِ؛ كبخارٍ من أنوف الأرانب في الصقيعِ؛ كنطْقِ اللسانِ، خطأً، باسمٍ مَّا لوَّعَ اللسانَ. يكفيكنَّ أنكنَّ تسلَّفتُنَّ من الخبز شكوكَ الخبزِ، وتنفَّستُنَّ من الرئاتِ الأشرعةِ. خبِّئْنَ ما أنجزتُنَّ في الفُستقة المقشَّرةِ. ستأكلْنَ ما أنجزتُنَّ فستقةً بعد أخرى، كي تُرضعْنَ ثعلبَ الخمائرِ. تؤمِنَّ بالطُّرقِ، وتُقْسِمْنَ بنهاياتها المُقفَلةِ؛ بالأطفال يأكلون، في كل لعبةٍ، زجاجَ طفولتهم. جيرانٌ يتدفقون ماءً من الجداول تسقيْنَ بها حدائقَكنَّ. قتلى مُنتخَبون من الكواكب كلها، جمعتْهم القيامةُ الثالثةُ في مخادعكنَّ. معاركُ منتَخَبةٌ تعود بكنَّ إلى الحاضر الجديدِ. أَوَلدتُنَّ بملاعقَ من ذهب الحروف في الأفواه؟. آباؤكنَّ الكسورُ متتاليةً على حواف الأجرانِ. خبِّئْنَ آباءَكنَّ، إذْ تُجْرَحنَ، في مرح الجوزِ. خبِّئْنَ ما أنجزتُنَّ في الفُستقةِ المقشَّرةِ. لن تعترفْنَ أنكنَّ لم تجلسنَ، قَبْلاً، إلاَّ على نهايات السطور، وأنكنَّ لم تجلسْنَ، قبلاً، في حلم البحرِ بمغيبِ رؤيا، ولم تهشِّمْنَ أعقابَ أحذيتكنَّ العاليةَ

قبل دخولكنَّ الوجودَ. ملاعقُ منسيَّةٌ في حقائبكنَّ. ملاعقُ منسيةٌ في حقائب الأميراتِ. لا تحْملنَ الحقائبَ من رحيل إلى رحيلٍ. امْكُثْنَ صامتاتٍ طويلاً قبل أن تستشرْنَ الكزبرةَ لرحيلٍ آخر بلا حقائبَ، مُذْ أنتُنَّ

على

حافةِ

كلِّ

شيءٍ.

احْتمِلْنَ، قليلاً، ثقةَ الشكِّ بكُنَّ؛ احْتَمِلْنَ أكثر مما تحتمل مرآةٌ من صور العابريْنَ. مراياكُنَّ لا تُكسَرُ بل تتكسَّر فيها الصورُ، وتؤْتَمَنَّ على المعلومِ ـ القرنِ المكسورِ. لا شيءَ يخيفُ: أنتُنَّ في محنةِ الحجريِّ مُذْ آمنَ الحجرُ بخيالكُنَّ نَحْتاً على تعبه الصُّلبِ. لا شيء يخيفُ، لأنكنَّ رتَّبتُنَّ الخوفَ أنيقاً، فكرةً على تَرَفِ فكرةٍ، وادَّخرتُنَّهُ لفصولِكنَّ التسعةِ يجدِّدُ فيها أملُكنَّ ولاءَ الخوفِ لكُنَّ. بحرٌ على يسار قلوبكنَّ. ربحتُنَّ الأرخبيلَ يُقْطَفُ جزيرةً جزيرةً من غصن المياهِ هناك، على يسار قلوبكنَّ. ربحتُنَّ سبائِكَ الندم ذوات النقوشِ الطيورِ يضرب بها الرمادُ على الأظافرِ. ربِحتُنَّ الشعوبَ الوساوِسَ الأمَم تلك ـ الأكياسَ في المتاجر؛ الأممَ الأسواقَ مسقوفةً بالطين، مُذْ أعنْتُنَّ المجهولَ الهمجيَّ في قُبلته على فمِ

الحقائقِ. متاعبُكنَّ ليست متاعبَ الورقة من شغَبِ السطرِ الثاني. نكوصُكنَّ ليس نكوصَ الأرجوانيِّ عن مهمَّتهِ. وثُنكنَّ، ذو الجلدِ الماءِ، يتقلَّبُ على كل فراشٍ شوقاً إلى مُعْتَقَدِ الهندسةِ، وأنصابُكنَّ هي ذاتُها ـ أنصابُ النسيانِ المرتفعةُ الأكتاف. هواءٌ مقطَّع الأزرارِ؛ هواءٌ مُستأجَرٌ على حوافِ خيالكنَّ. تغيَّرتُنَّ أخيراً: بلغتُنَّ عمرَ الحياة ماشيةً على أطراف أصابعها. أيُرْبِككنَّ ذلك؟. أيُربككنَّ التحديقُ إليكنَّ من العتباتِ؟. طالِعُكنَّ النجمُ حانياً على البطولة المذعورةِ. طالعُكنَّ البطولة تتعثَّرُ، كالغضب، بجِذْلِ مرحكنَّ على الحافة. لا تفكِّرْنَ في شيءٍ الآنَ: ضربةٌ بضربةٍ، عويلٌ بعويلٍ؛ ثأرٌ بثأرٍ؛ قروضُ المجدِ، كلُّها، بأقساطِ وَحْلٍ. لا تفكِّرنَ: مساميرُ مائلةٌ في مصاريع القلوب المائلة؛ مياهٌ لا تفي بوعدٍ؛ وعدٌ لا يفي بيقينهِ؛ حلباتٌ تتفرَّجُ على عراك السنين الكلبيةِ. لا تفكِّرْنَ في الشكِّ الوطيدِ ـ شكِّ الموجِ؛ في الرضى لا يُقهَرُ على قَسَمات الأقنعةِ: لواءٌ

شامخٌ

في

الكلماتِ،

منكَّسٌ

في

المعاني.

اخترتُنَّ اللواءَ من حياء الدخان في مداخن القرى. اخترتُنَّ المراهمَ المبشِّرةَ بجلودٍ عمياء، والشموعَ المسروقةَ الفتائل، كي تقفْنَ وقفتَكُنَّ هذهِ على جُرُفِ السيل: الْمياهُ أسفلَ. المياهُ النظراتُ مخطَّطةً بالأقلام الفحمِ؛ القُبلُ المخطَّطةُ بالجيْرِ؛ السحابُ المخطَّطُ بأقلام البحرِ. المياهُ الخَنْقُ فاتراً لا تزرَقُّ منه رقبةُ المعاني. هادرةٌ أقدامكُنَّ على جُرُفِ السيل. أسماكٌ نجميَّةٌ تتخبَّطُ في عشب الأعماق النجميِّ أقدامُكنَّ. أسفلَ تجري السماءُ فضَّةً دامعةً؛ إخفاقاً كإخفاق النهائيِّ في إفراغ جيوبه من سرقاتِ الموتى. كلُّ شيءٍ سِلعةٌ، أسفلَ، في السلال الصغيرةِ، بين الكمأِ؛ بنودٌ مُهمَلةٌ في الكِناش الزجاجِ. أسفلَ، هناك، في المِلاط يتقشَّر عن الرسومِ المياهِ، حيث تقفْنَ على جُرفِ السيلِ. نزهةٌ في الجمادِ، أسفلَ. نفوذُ الظلال في الأوديةِ، أسفلَ. الْقمرُ المتمرِّدُ. أضِئْنَ شموعَكنَّ: لن يتقاضى الأملُ منكنَّ قروشَ الفتنةِ، على جُرُف السيلِ. تِيْلةٌ قطنٌ مقطوعةٌ في أكتاف قمصانكنَّ، والآجرُّ يتقشَّرُ عن البشراتِ. المِلاطُ يتقشَّرُ عن الرسوم المياهِ. قمصانُ الرياح الضيقةُ تحت قمصانكنَّ الواسعةِ. سراويلُها القصيرةُ، الضيقةُ، تحت سراويلكنَّ الطويلةِ الواسعةِ. أنتُنَّ والرياحُ على جُرُف السيلِ. ستجدْنَ مِشْحَذَةً لسكاكينكنَّ في الأبديِّ، لكنَّكنَّ، في وقفَتكنَّ على جُرُفِ السيل، تتفكَّرنَ في العطرِ يخلو إلى نفْسِه، كالجسد يخلو إلى نفْسِه بمذاقِ

كمذاقِ الظلِّ. دقيقٌ أنكنَّ الشفهيُّ مَحْضاً لا تُكْتَبْنَ. ما مِنْ رجاء لكُنَّ في الكلماتِ. ما من رجاءٍ لكُنَّ في المعاني. دَفْقُكُنَّ الأرْتجاعُ تحت جلد الذَّكرِ. أَحنينٌ لا يُغْتَفَرُ، أَمْ وضوحٌ لا يُغْتَفَرُ، على جُرف السيلِ؟. غَدْرٌ

كلُّ

لونٍ

لا ينتهي

بمقتلةٍ.

ينتهي كلُّ بُعْدٍ، حيث تقفْنَ، بمقتَلَةٍ. هكذا البُعدُ على جرف السيل قياسٌ للعطر يخلو إلى نفْسِه في جسدٍ، أو في مقتلةٍ. لا فِكاكَ: بياضٌ مِلْزمةٌ يُطْبقُ على الرؤيا فكَّيْ حديدِهِ، وغيظٌ يلتهم السماء من خُصى غيومها، أو يقشِّر الرسالاتِ كالموزِ. يقشِّركُنَّ العطرُ وضوحاً بعد وضوحٍ على جُرُف السيل. واضحاتٌ أنتنَّ كحنينٍ غاضبٍ. كِماماتٌ على أفواه الغيوم المسعورةِ. رتِّبْنَ نهايةً بإزاء نهايةٍ، واكشفنَ عن الثديِ الزِّئْبَرِ يروِّضُ إذْ يُلْمَس، على جُرف السيل. طِلاوةٌ في همس الخبز فوق موائدكنَّ؛ طِلاوةٌ في زخارف الأباريقِ. أَبعادٌ أُضحوكةٌ في قياس الطعنة القاتلةِ: غَدْرٌ

أنْ

لا ينتهي

كلُّ
جَمالٍ
بمقْتَلةٍ.

ريحٌ جديدةٌ، ليِّنةُ الحوافِرِ، تتبعكنَّ إلى جرف السيل. حدِّثْنَ قلوبَكنَّ عن السيلِ اعْتباطاً. أترينَها قلوبَكنَّ منتشرةً رسوماً على حجر الكهوف؟. شِفاهاً تحدِّثُكنَّ قلوبُكنَّ الرسومُ. شِفاهاً يُسْتكمَلُ تاريخُ الفجرِ على جرف السيل. كسورٌ متضامَّةٌ شوقاً إلى كسورٍ. تحسَّسْنَها الكسورَ. تحسَّسْنَ الطينَ محتشِماً يُخالِسُ النظرَ إليكنَّ على جرف السيلِ. يُرجَّح أن لن تربحْنَ المائيَّ، حيث تقفْنَ. يُرجَّح أنْ لن تخسرنَ المائيَّ. اختبرْتُنَّ مَذْقَ الماءِ بربحٍ نبيذٍ في حانات البحرِ. اختبرتُنَّ الشفقةَ على الأختام ذائبةً في أيدي الآلهةِ. كنتُنَّ، قَبْلاً، على جرف السيل بأصواتكنَّ القَفْر إلاَّ من رثاءِ الحروفِ الحروفَ، وأنتنَّ ترميْنَ المؤنَ، من حقائب الأرواح، إلى الأنهار النجميةِ، أسفلَ؛ إلى الهاوية الجديرةِ بثناء الهولِ. كنتُنَّ، قَبْلاً، على جرف السيل، بإزاء أصنام الهول المكسورة الأنوفِ، تتأَمَّلْنَ، منكسراتٍ،

ما فاتكنَّ من قُبلةٍ ثُلثٍ في اقتسامِ القُبلِ، ومن لمسةِ ثُلث،
بعيون شاخصةٍ إلى اللانهائيِّ مغشوشاً يخالط الأزرقَ فوق
البحرِ. حريقاً مُعفىً من مساءلات الدخانِ كنتُنَّ؛ قلوباً ضامرةً
تحت أضلاع المعاني القصيرةِ. برقاعٍ من سراويلكنَّ رقَّعتُنَّ
جيبَ الفجرِ الممزَّقَ. وابتسمتُنَّ، طويلاً، للرياح ملوِّحةً
بقباقيبها. لا تتحفَّظْنَ عن ولاءٍ للسبتِ، أو للخميس، على
جرف السيل؛ لا تتحفَّظْنَ عن ولاءٍ لأيلولَ: لقد أنقذتُنَّ
الأساطيرَ المرتزقةَ في حروب الخلودِ. الأحياءُ،

أبداً،

ينقذونَ

الخلودَ.

الأحياءُ، أبداً، ينقذونَ الموتى.

لا تتحرَّكنَ كثيراً على جرف السيلِ. خطأٌ محنَّكٌ خطأُ القُبلة
على جرفِ السيلِ، والمذاقُ تَفِهٌ كمذاق الطعنة في وليمةٍ. أَوْ
هُوَ دَوْسٌ بأخمص القَدَم على الشظايا القمريةِ؛ دَوْسٌ بأخمص
القَدَم على صخبِ الأبعاد المكسورةِ؛ أو كَبْسٌ بنصل الجرحِ
على كلِّ قلبٍ. مزاجٌ خيامٌ مزاجكنَّ على جرف السيلِ.
زفيركنَّ صاعدٌ، مغسولاً، من رئةِ الأرقام. مَسْحَةٌ من جَمالٍ
حامضٍ على شفاهكنَّ. مَسْحَةٌ من نَكَدِ الجَمالِ في العيونِ.
جميلاتٌ على الجرف مُذْ كنتُنَّ نَكَدَ الجُرفِ. لن توقِعْنَ بأحدٍ

في مَقتلةِ. لن تنقذن أحداً

من

مقتلةٍ.

ظاهرٌ هذا مُذْ كنتُنَّ وضوحاً لا يَرُدُّ الإهانةَ. ظاهرٌ حَسَنٌ كلُّه الظاهرُ الحَسَنُ. ابتعِدْنَ خطوةً عن جرف السيلِ. الْوحلُ أسفلَ. ظمأُ الثلث إلى ثُلثٍ وحلٍ. تراشَقْنَ بالسطورِ الثُّلثِ في تلخيص النهائيِّ، تفصيلاً بعد آخرَ، على لوح اللانهائيِّ. غزاةٌ منشقُّون عن الأسلافِ أسفلَ. شاكِسْنَهم كمشاكساتِ النوافذ في الأبراج المهجورةِ. زيُّ الوحلِ، ودِيْنُه، أسفلَ. الوحلُ الأصواتُ؛ الخيارُ المُجْزى تهدِّد به النارُ الآلهةَ. الْوحلُ القياسُ دقيقاً حين يتعذَّرُ القياسُ الهواءُ. الْوحلُ الرِّضى يتنفَّسه السيلُ دُوَّاماتٍ. لا ميثاقَ كالسيلِ. لا رهانَ كالسيلِ. لا عَدْلَ ينتَحِبُ رجاءً كالسيلِ. الزخارفُ مَشُورتُه. حاناتُه السفلى بأسماءٍ من أسماءِ العقلِ. يُحاكى بلسان الأيل، وبالصراخ في الميادين السفليةِ. وقتُ ذاتِهِ هو؛ السِّدادةُ الكبرى على أفواه الدَّامِجاناتِ الكونيةِ. يُخاضُ إذْ يُلهِمُ الطينَ أشعارَ العماءِ الناجي. لا وفاءَ كالسيلِ. حظائرُه الطينُ مكتظَّةٌ بالجيادِ الطينِ. حدائقُه ترتفع وتنخفض جليلةً بروّادها الجالسين على مقاعد الأثرِ المفقودِ. فطائرُ السيلِ في الأيدي قريبةً من الأفواهِ. مراوحُه في الأيدي ـ مراوحُ الانهداماتِ. لا قُفلَ كالسيْلِ. دَفْقٌ حياكةٌ للأمثال سواداً

يتداوله البياضُ في رواقه ـ رواقِ الناطقينَ، أسفلَ، بالأمثال موحِلةً. لا جدالَ كالسيلِ بلسانين في فم البرهةِ المفقودةِ. لا صلحَ كالسيل. ينابيعُ الوحل منتعشةٌ بالقصب أبيضَ من حولها. فقاعاتٌ بيضاء. أثاثٌ مكتسىً بالقماش الزِّئبَرِ، طافٍ، متَّزنٌ في الطُّفوِّ كأنْ يسير به وحيٌ وحلٌ إلى رؤيا الجبارينَ. أصولٌ مهذَّبةٌ أصولُ الوحل. أُسُسٌ ثِقةٌ. خلائقُ تتسارَرُ في القصبِ منتعشاً أبيضَ من حول الينابيع الوحلِ. بغايا هيكل الهيولى الأولى. البغاءُ اللوحُ ـ رسومُ الرحيل من الخوف إلى الخوفِ. لا براعةَ كثقة السيل بالوحل نظاماً. لا نظامَ كالسيل. يُخدعُ اللهُ لكِنْ لا تُخدعُ ينابيعُ الوحلِ، دافقةً بالأمثال الأزلية، في خيال الإنسان، بيضاءَ إلى حقل القصب محيطاً بالأصلِ الوحلِ. كينوناتٌ موحلةٌ كي تترعرع أُشْنَتُها على جرف السيل. نقاءٌ موحلٌ كي يَثبُتَ النقاءُ بإزاء العصيانِ. مُذْ كان الموحلُ كانت الهيولى هذهِ ـ أُمُّ الأربعاءِ في كلِّ طالعٍ. أبيضُ جرحُ الوحل. بيضاءُ كِيْنَةُ الموحلِ. العاصفةُ نَكْبَاءُ أسفلَ، حيث توصَد البواباتُ على القوافل عائدةً من فردوس المعاني بأَحمالٍ من جحيم الكلماتِ. قوافلُ موحلةٌ من أقدامها حتى جباه الآلهةِ. خمورٌ تُهْرَق، أسفلَ، كَرمى الخطأِ المُنقذ. بياضٌ يُهْرَقُ كي تتجانس الهيولى. لا تجانُس كالسيلِ. صائدو حيتانٍ يستعرضون، مثلكنَّ، خرائطَ الهمس الكبرى بأيدٍ موحلةٍ وراء

عجلات الطينِ الكبرى. الوقتُ يترنَّحُ. الصُّنَّاعُ الصغار لأقفالِ الماهياتِ يغلقون حوانيتَهم غضباً من إهمال الصخب لبراعاتهم الموحلةِ. لا صخبَ كالسيلِ متناظراً. غضبٌ موحلٌ على الجُرف. مضارباتُ الشاحبينَ في أسواق الإثمِ الكُليِّ، أسفلَ، قرب أقدام الملائكة الموحلةِ. روافدُ من نزوات العَدَم، وجداولُ من زفرات الوجودِ. لا أكيدَ كالسيلِ. تراجَعْنَ قليلاً. مَدٌّ يرفعُ نقوشَه الموحِلةَ إلى حافة الجُرف، حيث لم تزل الحياةُ واقفةً، مثلكنَّ، على أصابع قدميها الموحلتين، تترنَّح كالوقتِ تَعَباً. مَدٌّ آخرُ ينتزع النقوشَ من حافة الجرف، حيث لا تزال قلوبُكنَّ في الثلث الثاني من جَمْعِ الفديةِ للإثم المُنقذِ. لا عقدَ كالسيلِ. عضّاً تتدبَّر الأرضُ لنفْسِها أحكامَ السيل وأمثالَه الأنيسةَ. تالياً تتدبَّرْنَ، أنتُنَّ، للأرضِ لهفةَ الموحلِ إلى أمثالٍ، بترانيمَ مدنَّسةٍ ـ أسفارٍ انتزعْتُنَّها من جيرِ المناراتِ. لَمَدْحورةٌ

أسفارٌ

لا تنتهي

بمقتلةٍ.

مدحورٌ إلاَّ الرقمُ، الذي من حُلمِ المعاركِ.

لا يليق بالخسارات أن تتعافى بين أيديكنَّ، على الجُرف.
غادرْتُنَّ الحروفَ، التي تلدُ الكلماتِ قبل أوانها، بجرحٍ سويٍّ رفَّهْتُنَّهُ؛ جرحٍ مُمتدَحٍ يتحرَّى به الماءُ مزاعمَ الملح عن السُّكَّرِ المنتحرِ. تتحدَّثنَ، على جرفِ السيلِ كالنساء، عن خطفِكُنَّ قبل الخريف بحريقٍ واحدٍ. وتربْحنَ، كالنساء، لمرَّةٍ، شكَّ أجسادكنَّ. أَمْ تتَّجهْنَ، في السطر المقامر بالسطور كلِّها، جنوباً، إلى القُبَلِ، كالنساءِ؟. أنتُنَّ ديونُ السِّلْمِ: أقدامٌ معطَّرةٌ. قلوبٌ معطَّرةٌ. ألمٌ معطَّرٌ. تجفِّفنَ بالمناديل الموحلةِ، كآبائكنَّ، عَرَقَ الغيبِ. أَقُتِلْتُنَّ؟. ستُقتَلْنَ إنِ اجتمعتُنَّ في عناقٍ واحدٍ،
أو قُبلةٍ واحدةٍ،
أو رعشةٍ واحدةٍ،
أو وفاءٍ واحدٍ.

عضّاً تحدِّثْنَ قلوبَكنَّ أنَّ
الحقَّ
مع
الجرحِ،
لا معَكُنَّ.

بقلوبٍ عضٍّ، من حافة الجُرف، تتأمَّلْنَ انهيارَ الماء باكياً.

قلوبُكنَّ، المشقَّةُ في ترجمة الماءِ إلى لغة النهرِ، مائلةٌ على الخُوَذِ المكسورة من سقوط قلوبكنَّ عليها. قلوبٌ صعبٌ أنْ تُعادَ إلى أماكنها بعد أنْ تُخانَ. قلوبٌ عضٌّ، تتلمَّسْنَها نافرةً على عَمَدِ الجسورِ، بيَديْ خيالِكُنَّ الرقمِ ـ أسدِ الأبراجِ. وتعترفْنَ. يا لَهُ اعترافكنَّ لا يصحّحُ كسورَ الأرقامِ. لَكِنْ لا تغادِرْنَ الجُرف مُذْ كانتِ الطُّرُقُ كلُّها مشقَّاتٍ في ترجمة الزعفران إلى لغةِ الجوزِ؛ مشقَّاتٍ

في

ترجمةِ

القَرَنْفُلِ

إلى

لغةِ

الأقحوان.

على جُرفٍ يُخدعُ الأفقُ. لا تُغادرْنَ حافةَ الجُرفِ: لقد بلغ السيلُ عُمْرَكنَّ، وبلغْتُنَّ،

أخيراً،

عُمُرَ

الأربعاء.

سكوغوس ـ مملكة السويد

٢٠١٠

صدر للمؤلف

* كل داخل سيهتف لأجلي، وكل خارج أيضاً (شعر)
* هكذا أبعثر موسيسانا (شعر)
* للغبار، لشمدين، لأدوار الفريسة وأدوار الممالك (شعر)
* الجمهرات (شعر)
* الجندب الحديدي (سيرة الطفولة) (سيرة)
* الكراكي (شعر)
* هاتِه عالياً؛ هاتِ النَّفير على آخره (سيرة الصبا) (سيرة)
* فقهاء الظلام (رواية)
* بالشِّباك ذاتها؛ بالثعالب التي تقود الريح (شعر)
* أرواح هندسية (رواية)
* الريش (رواية)
* البازيار (شعر)
* الأعمال الشعرية (شعر)
* معسكرات الأبد (رواية)
* طيش الياقوت (شعر)
* الفلكيون في ثلثاء الموت: عبور البشروش (رواية)

* الفلكيون في ثلثاء الموت: الكون (رواية)
* الفلكيون في ثلثاء الموت: كبد ميلاؤس (رواية)
* المجابهات؛ المواثيق الأجران؛ التصاريف، وغيرها (شعر)
* أنقاض الأزل الثاني (رواية)
* الأقراباذين (مقالات في علوم النَّظر)
* المثاقيل (شعر)
* الأختام والسديم (رواية)
* دلشاد (فراسخ الخلود المهجورة) (رواية)
* كهوف هَايْدْرَاهُوْدَاهُوْس (رواية)
* المعجم (شعر)
* ثَاذْرِيْمِيْسْ (رواية)
* موتى مبتدئون (رواية)
* السلالم الرملية (رواية)
* شعب الثالثة فجراً من الخميس الثالث (شعر)
* لوعة الأليف اللاموصوف المُحير في صوت سارماك (رواية)
* ترجمة البازلت (شعر)
* هياج الإوز (رواية)
* التعجيل في قروض النثر (نصوص)
* حوافر مهشَّمة في هايدراهوداهوس (رواية)

«الشعر يتدفّق دائماً هناك: في ما يفعل باللغة،
وفي اللغة، وفي الجماع بين الحسيّ والذهني،
وفي إفلات خياله الجامح من المألوف والمتوقّع
إلى المفاجئ المدهش».

محمود درويش

«كان نصُّ سليم بركات دائماً فاتناً.
وقد فتن بمثاله، وفتن بكماله».

عباس بيضون

«اللغة العربية في جيب هذا الشاعر الكردي».

أدونيس

«أعظم كردي بعد صلاح الدين».

سعدي يوسف

سليم بركات شاعر وروائي سوري.


ISBN 978-1-85516-698-1
9 781855 166981 >

